من مصادر تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني

الزهرة النائرة

فيما جري في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

تأليف

محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني

ضبط النص وعلق عليه

خير الدين سعيدي الجزائري



للنشر والتوزيع

من مصادر تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني

الزهرة النائرة فيما جرى فى الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

تأليف

محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني

ضبط النَّص وعلق عليه

خيرالدين سعيدى الجزائرى

طالب دكتوراه بقسم التاريخ العثماني بجامعة اسطنبول



الموضوع: تاريخ الجزائر

العنوان: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

تأليف: محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني بن رقية التلمساني

تحقيق: خيرالدين سعيدي الجزائري

طالب دكتوراه بقسم التاريخ العثماني بجامعة اسطنبول

عدد الصفحات: 174

قياس الصفحات: 20/14

التنفيد الفني: أوراق ثقافية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2017

ردمك: 978-9931-310-27-3

الإيداع القانوني: السداسي الأول 2017

تطلب جميع منشوراتنا من

مكتبة أوراق ثقافية حي أيوف شارع عريض الصديق جيجل

أوراق ثقافية للنّشر والتوزيع

هاتف: 034.47.59.86

05.57.26.85.06

Awrak.edition@gmail.com

إهداء

إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما

إلى شيخ المؤرخين الجزائريين

أبي القاسم سعد الله

رحمه الله

شكر وتقدير

ما كان هذا العمل ليرى النُّور لولا أن منَّ الله على بمساعدة كبيرة من إخوة أفاضل جزاهم الله عنَّا كلَّ الخير وعلى رأس هؤلاء

الأستاذ الدكتور فارس كعوان الذي أشرف على هذا العمل من أول يوم.

شيخنا سامي غرمول الذي أشرف على مراجعة البحث في جانبه اللغوي

أخي الساسي على تشجيعاته المتواصلة

بعض الاختصارات الواردة في البحث:

1-العربية:

د – ط: دون طبعة.

د-س: دون سنة النشر.

د-م: دون مكان النشر.

(أ): النسخة الأولى من المخطوط الموجودة بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2521.

(ب): النسخة الثانية من المخطوط الموجودة بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2626.

(س): نسخة الزهرة النائرة التي نشرها سليم بابا عمر في مجلة كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1967.

(ر): نسخة المخطوط التي قام بترجمتها ألفونس روسو سنة 1840.

ج: الجزء.

(ش و ن ت): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

(م ول أ إ ث): المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

(م و ك): المؤسسة الوطنية للكتاب.

2-اللغة الفرنسية:

I-G : IMPRIMERIE DU GOVROMENT.

R-A : REVUE AFRICAINE.

V : VOLUME.

T : Tome.

مقدمة:

كثيرا ما لُقنَّا في السنوات الأولى مِن التَّعليم بأطواره المختلفة أنَّ الجزائر خلال العهد العثماني كانت دولة مُهيبة الجانب، تَدفع لها العديد مِن الدول الأوروبية إتاوات سنوية مقابل حماية سفنها في حوض المتوسط وعدم التَّعرض لها، كما عُلِّمنا أنَّ الجزائر كانت حصنا للإسلام والمسلمين المهاجرين مِن الأندلس بعد سقوطها، وأنَّها بفضل أسطولها البحري وتحصين مُدنها كانت تردُّ جميع الحملات الأوروبية التي تستهدف غزوها، كما أنَّها ساهمت بشكل كبير في صون الإسلام في بلاد المغرب.

وعلى العكس من ذلك تماما وفي المرحلة الجامعية طُلب منَّا من بعض الأساتذة نسيان كل معارفنا عن الجزائر العثمانية؛ لأنَّ هذه المغارف كانت محضَ أساطير ومجرد خيال أبدعه البعض، وها هنا وُجِد لدى الكثير من الطَّلبة اضطراب، وحيرة كبيران، ولم يتمكن الكثير منا استبصار الحقِّ مِن الباطل، وذلك لغياب أو تغييب وجهة رأي مَن عايش تلك المرحلة مِن المؤرِّخين الجزائريين.

على أنَّ غياب مادة خبرية تؤرخ للعهد العثماني في الجزائر(1515-1830) لم يكن مردُّه انعدام المصادر التاريخية التي تُؤرِّخُ لهذه الفترة فحسب، وإنَّما هناك سببان لذلك: أوَّلهما استحواذ السُّلطات الفرنسية على مخزون هام جدا مِن هذا التراث وإتلافه -حتى تقطع صلة المجتمع الجزائري بحضارته العربية الإسلامية- ثانيهما: تقاعس الباحثين

والمهتمين عن إعادة بعث تلك المادة الخبرية التي تشمل تراثا كبيرا مِن المخطوطات المتفرِّقة بين المكتبات العامة والخاصة، والتي لاتزال إلى اليوم في مطيِّ الإهمال وغياهب النِّسيان.

مع الأسف أدى ما سبق من انعدام المادة الخبرية التي تؤرخ لتاريخ الجزائر العثمانية إلى خدمة الأطروحة الغربية عن تاريخ أمتنا ومآثر أسلافنا، فالعيب إذاً فيمن لم يقف على هذه المخطوطات، واقتصد الجهد في إخراج هذا التراث الكبير إلى الأمة شحذا للهمم ومَبعثا مُتجدِّداً للقيم.

ومِن بين المخطوطات التي لم تنل حقَّها مِن الاهتمام والدِّراسة ولم تر النور في شكل يليق بها فعلا، المخطوط الذي بين أيدينا اليوم، وهو مخطوط "الزّهرة النَّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" لمحمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمن الجيلاني بن رقيَّة التَّلمساني.

يُعبِّر المخطوط في مجمله عن وجهة نظر أحد العلماء الجزائريين في الحملات الأوروبية على مدينتهم طيلة فترة زمنية جاوزت الثَّلاثةَ قرون، وصاحب المخطوط يتحدَّث عن عددٍ مِن الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر، وسَيْر كلِّ حملةٍ مِن الحملات الماضي ذكرها.

والمخطوط يحمل بين جنباته: وِجهة رأيِّ سكان الجزائر حيال الاعتداءات الأوروبية على وطنهم، والدّافع الحقيقي لهذه الحملات، وقبل أن يجيبنا صاحب المخطوط عن وجهة النَّظر هذه في مخطوط "الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" وجب علينا معرفة عدد مِن المباحث تتيح لنا فهم ما أراد صاحبه إيصاله لنا،

ولعلَّ أهم هذه المباحث ما تعلق بصاحب المخطوط، والسِّمات البارزة للعصر الذي نشأ فيه، وسنكتفي بالحديث عن عصره من ثلاثة نواحي نرى أنها ذات أهمية لسبر غور ما جاء في هذا المخطوط، ثمَّ سنسعى إلى أفراد المخطوط بدراسة نتحدث فيها عن أهميته، وما يتضمنه بين دفتيه ، كما أنه لم يفتنا ذكر أهم المصادر التي عاد إليها في نقل معلوماته عن هذه الحملات.

في الأخير وجب علي أن أنوه بالمساعدة الكبيرة والإشراف الدائم للأستاذ الدكتور فارس كعوان رئيس قسم التاريخ والاثار بجامعة سطيف 2 بالجزائر، إذ لم يبخل علي يوما بالنَّصيحة وهو مَن حثني على تحقيق هذا المخطوط وإخراجه للنور، كما لا يفوتني أن أشكر شيخي أبو وائل سامي غرمول على فضله الكبير علي، إضافة إلى جميع الأساتذة الذي ساعدوني على تنمية قدرتي في عملية التَّحقيق، خاصة الأساتذة المشرفين على الدورات التدريبية في تحقيق المخطوطات، والتي نظمتها جامعة قسنطينة 2 مع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في رحاب تلك الجامعة الطَّيبة، ودورة أخرى نظمها المعهد العربي لتحقيق المخطوطات في جامعة زيان عشور بالجلفة، والاشراف المباشر لنفس المعهد على دورة ثالثة متخصصة في مركز البحوث الإسلامية في إسطنبول، في الأخير أشكر الأستاذ الدكتور أحمد عبد الباسط على التواصل الدائم وتعريفي بالأستاذ الدكتور الفاضل محمود المصري، الذي احتضنني في مجموعته البحثية في مركز البحوث الإسلامية في إسطنبول (إيسام) ولم يبخل علي يوما

بالنّصيحة وصبر علي تماطلي وتصحيحي الدائم والمتكرر لهذا المخطوط، والأخ الصديق أبو حفص حذيفة جباري على ملاحظاته الدقيقة على مسودة هذا البحث، جزى الله الجميع خير الجزاء وأمدهم بما فيه خير لهم وجعل عملهم في ميزان حسناتهم إلى يوم الدِّين، وجعلهم الله سدنة لهذا التراث الإسلامي العظيم.

فرغ من مراجعته في اليوم الرابع من شهر رمضان المبارك سنة 1437هـ الموافق لـ اليوم التاسع من شهر حزيران/ جوان 2016م في مدينة إسطنبول

أولا: قسم الدراسة

الفصل الأول:

التعريف بصاحب المخطوط وعصره

1. التعريف بصاحب الكتاب:
   - اسمه
   - نسبه
   - وفاته

2. عصر مؤلف الكتاب
   - الناحية السياسية
   - الناحية الاجتماعية
   - الناحية الثقافية

التعريف بصاحب الكتاب:

تُعدُّ أبرزُ مُشكلة واجهتنا في هذا القسم مِن الدِّراسة وضعَ تعريفٍ لصاحب المخطوط، وتجسَّدت هذه المشكلة في ثلاثة مصاعب:

أوّلا: شُحّ -إن لم نقل انعدام- المادة الخبرية المتعلِّقة بصاحب المخطوط؛ فمعظم مَن تناول المخطوط بالدِّراسة كالأستاذ سليم بابا عمر أو بالترجمة كألفونس روسو (Alphonse Rousseau) أو برنبي (Bresnir)، لم يمنحوا أهمية كبيرة للتعريف بصاحب المخطوط.

ثانيا: اختلافُ نُسخِ المخطوط التي في حوزتنا حول نسبة صاحب المخطوط إلى مدينة ما بعينها.

ثالثا: وجود مُلحق أضافه ألفونس روسو (Alphonse Rousseau) في الترجمة التي قام بها سنة 1841م[1]، لا يوجد هذا الملحق في غير تلك الترجمة من النُّسخ المخطوطة، وقد استعان بهذا الملحق بعض المؤرخين كابن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود كما سيأتي، ونَسبه إلى مخطوط "الزهرة النّائرة"[2]، تكمن الإشكالية التي يحملها هذا الملحق في ثناياه أنه يحدد بشكل غير مباشر تاريخ وفاة صاحب المخطوط، إذ ورد الملحق في صورة جريدة -أي قائمة-أوردت أسماء حكام إيالة الجزائر خلال العهد العثماني.

---

(1) - Alphonse Rousseau : Chroniques de la régence d'Alger, Traduites d'un manuscrit arabe intitulé "EL-ZOHRAT-EL-NAYERAT", imprimerie du govroment, Alger, Annee1841.

(2) - الآغا بن عوده المزاري: طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، د-ط، الجزائر، دارالبصائر، 2007، ج1، ص255.

اسمه:

ترجم بروكلمان لمؤلف الكتاب الذي بين أيدينا بقوله: «محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمن التِّلمساني، كتب سنة (1139هـ/ 1779م) الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها الكفرة..»[1]، نقل هذه الترجمة خير الدين الزّر كلي في كتابه الأعلام فقال: «محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمان التَّلمساني مُؤرِّخٌ له الزَّهرة النَّيرة»[2] كما حاول الأستاذ ناصر الدِّين سعيدوني وضع ترجمةٍ لصاحب المخطوط "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمان التَّلمساني" فلم تزد عن عشرة أسطُرٍ، وجاء فيها خطأ بتحريف الجيلانيّ إلى الجيلاليّ[3] – قد يكون مجرد خطأ مطبعي –فقال في ترجمته: «محمَّد بن عبد الرَّحمان الجيلالي بن رقيّة التلمساني، أو محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمان بن محمَّد لا يُعرف شيءٌ عن حياته، سوى أنَّه عاش في نهاية القرن الثَّامن عشر ميلادي.»[4]

نِسبَته:

أمَّا ما نقف عليه مِن ضبط لاسم صاحب المخطوط ونسبه حسب ما هو موجودٌ في نُسخِ المخطوط فلابد له من بعض التفصيل؛ إذ نجد أن كل

(1) – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي وعمر صابر عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1995، ج9، ص 481.

(2)–خيرالدين الزر كلي: الأعلام، ط15، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ج7، ص69.

(3)– ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، د–ط، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1999، ج1، ص425.

(4) – ناصر الدين سعيدوني: المرجع نفسه: ج1، ص425

النسخ التي بين أيدينا –سواء كانت مخطوطة أو مترجمة– تتفق في أنّ صاحب الكتاب هو «محمَّد بن محمَّد بن عبد الرّحمن بن رُقيّة التّلمساني دارًا ومنشئًا» وموضِع الخِلاف نقف عليه ضمن حديث نسخ المخطوط عن نسبة صاحب المخطوط، وبالتحديد عند كلام صاحب الكتاب عن أصله، ففي إحدى النُّسخ كُتب (الجزائري أصلاً)[1] أمّا في النُسخ الباقية فوردت بقول النُّساخ (الجديريُّ أصلا)[2][3][4]،وهي الأصحُّ حسب اعتقادنا؛ إذ أنَّ صاحب المخطوط أراد أن يُظهر تجذُّره في مدينة تلمسان وتأصُّلَه فيها.

عكس ما ذهب إليه (Bresnir) في ترجمته للواقعة التاسعة مِن الكتاب الذي بين أيدينا في المجلة الأفريقية حيث ترجم الجديري بـ(d'Agadir) والصَّحيح أنّ صاحب المخطوط قَصد بالجديري مدينة (أجادير) أو (أقادير) كما تكتبها بعض المصادر، وهي المدينة القديمة من مدينة "تلمسان" في الغرب الجزائري، لأن مدينة "تلمسان" قديما كانت عبارة عن مدينتين متجاورتين، تُعرف القديمة باسم (أجادير) أو (أقادير)، وتُعرف الجديدة باسم "تا فرازت"[5]، وليس قصد "ابن رقية التلمساني"

(1) – مخطوط الزهرة النائرة النسخة(أ)، و/ 47.

(2) – مخطوط الزهرة النائرة النسخة(ب)، و/ 16.

(3) – مخطوط الزهرة النائرة النسخة(ج)، و/ 3.

(4) – مخطوط الزهرة النائرة النسخة(ر)، ص198.

(5) – ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، د–ط، بيروت، لبنان، دار صادر، 1997، ج2، ص44.

بقوله :«الجديري» مدينة "أغادير" في المغرب الأقصى كما قد يُتَوهَّم من خلال ما أورده (Bresnir) في هذا الشأن بقوله :

«..né et domicile à Tlemcen originaire d'Agadir…»[1]

وصحيح ترجمة الجديري إلى الفرنسية هو ما أورده ألفونس روسو سنة 1841مـ بقوله: «el-Tschadiri…»[2].

وفاته:

فيما يخص سنة وفاة صاحب الكتاب "ابن رقية التلمساني" فقد اتَّفق أغلب مَن حاول الترجمة لصاحب المخطوط أنّها كانت بعد (1780مـ/ 1194هـ) أي بعد الانتهاء مِن وضع مخطوط "الزّهرة النّائرة"، غير أنّ غلبة الظنّ أنّ سنة وفاة "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرحمان التَّلمساني" كانت بعد تاريخ (1780مـ/ 1194هـ) بكثير.

والأمر غالبا لن يخرج عن إحدى فرضيتين هما:

أولاً: هو أنَّ "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرحّمان التَّلمساني" صاحب المخطوط هو نفسه شيخ أبي راس، محمَّد بن عبد الرّحمان التَّلمساني الذي ذكره في كتابه "فتحِ الإلهِ ومنّتِهِ في التّحدثِ بفضل ربّي ونعمتِهِ" إذ وضع له تعريفًا تناول فيه مكانته العلمية والمناصب التي شغلها ومحنته،

(1) - Bresnir.J: Récit indigène de l'expédition D'O'REILLY، Revue Africaine، ANNEE1864، N°8، P 345.

(2) - Alphonse Rousseau: Chroniques de la régence d'Alger، Traduites d'un manuscrit arabe intitulé "EL-ZOHRAT-EL-NAYERAT"، imprimerie du govroment، Alger، Annee1841. P198.

ثمَّ رحيله مِن "تلمسان" إلى المشرق ومشايخه بالمشرق[1]، ومرد هذا الاعتقاد تشابه اسم من ترجم له أبو راس الناصر في "فتح الإله ومنته" مع صاحب الكتاب، إضافة إلى قرب الفترة الزمنية والرقعة الجغرافية إذ أنّ الرجلين من بايلك الغرب الجزائري ما يكون قد سمح فعلا لأبي راس الناصر أن يتتلمذ على يدي صاحب الكتاب الذي بين أيدينا، وقد وضع أبو راس الناصر كتابه في حدود سنة (1233هـ/ 1818مـ) أي أن صاحب المخطوط يكون من المؤكد أنه قد عاش إلى ما قبل سنة (1233هـ/ 1818مـ) لأن أبي راس لما ذكر محمد بن عبد الرحمن التلمساني الذي ترجم له، ذكر أنَّه قد تُوفي بأرض الحرمين الشريفين بعد رحيله من الجزائر[2]، ولعل ما يمكن أن يدعم حجَّة اعتبار شيخ "أبي راس" محمَّد بن عبد الرحمان التَّلمساني هو نفسه صاحب المخطوط، وجود كلامٍ للأغا بن عودة المزاري يزعُم فيه أنّه نقله عن صاحب المخطوط الكتاب الذي بين أيدينا "محمَّد بن محمد بن عبد الرحمان الجيلاني"[3]، وبالتحديد فقد نقل "الاغا بن عودة المزاري" جريدة لحكام الجزائر خلال العهد العثماني تنتهي هذه القائمة باسم حاكم إيالة الجزائر "دالي إبراهيم" سنة (1222هـ / 1807مـ) بما يعني أن صاحب المخطوط

(1) - محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومنَّه في التَّحدث بفضل ربي ونعمته، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، د-ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص 49-50.

(2) - نفسه : ص 50.

(3)- الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج1، ص255.

يكون قد توفي سنة (1808مـ) إذ كان دالي إبراهيم آخر الحكام العثمانيين الذين عايشهم صاحب الكتاب.

ثانيا: هو أن صاحب الكتاب الذي بين أيدينا "محمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني" قد توفي بعد تاريخ (1808مـ) بكثير، بل ومن الممكن أن يكون قد عايش الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما يخدم هذا التصور هو أنّ الجريدة التي نقلها الاغا بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود وتوقف بها عند سنة (1808مـ) هي نفسها التي أوردها ألفونس روسو (Alphonse Rousseau) عندما نقل النص إلى اللغة الفرنسية سنة (1841مـ)، غير أنَّ الجريدة عند "روسو" لا تنتهي باسم "دالي إبراهيم" سنة (1222هـ/ 1807مـ) كما هو الحال بالنسبة للآغا بن عودة المزاري، ولكنها تنتهي بانتهاء الوجود العثماني في الجزائر وباسم آخر الدايات حسين داي (1233هـ/ 1830مـ)[1]، مع إمكانية أن يكونّ الأغا "بن عودة المزاري" نقل كلامه الذي عزاه لصاحب المخطوط "الزهرة النائرة" مِن ترجمة ألفونس روسو، لكنَّه تصرَّف في جزءٍ مِن النّص يبدأ بتولي "بابا علي" الحكم خَلفًا لـ"دالي إبراهيم" سنة (1222هـ/ 1807مـ) وينتهي بسقوط مدينة الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830مـ وهو ما سمّاه ابن عودة المزاري الدولة التاسعة...![2]، ونسب هذا الجزء لشخصه.

---

(1)- Alphonse Rousseau : Id p213.

(2) – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، المرجع السابق، ج1، ص255.

كما قد تكون القائمة السَّالفة الذِّكر مِن اجتهاد "ألفونس روسو" وليست في متن الكتاب في الأصل، لكن ذِكر الأغا "بن عودة المزاري" نقل قائمة الحكام مِن "الزهرة النائرة" واستعانة بعض المؤرخين مثل "محمَّد بن يوسف الزِّياني" في كتابه "دليل الحيران" بها، هو ما فتح باب التَّأويل.

وبالتالي فإنّ لم يكن صاحب المخطوط قد وضع هذه الجريدة لحكام الجزائر بنفسه، فقد يكون -في هذه الحالة-نفسه شيخ "أبي راس الناصر الذي ذكره في "فتح الإله ومنته" وذكر وفاته في طريق عودته -الهاء تعود على أبي راس- مِن الحجِّ حيث كان ذلك في حدود (1205هـ) وهو الرأي الذي نميل إليه حاليا، وإلا فإنّ وفاة "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرحَّمان الجيلاني بن رقية التلمساني، كانت بعد سنة (1222هـ/ 1807مـ) وهو تاريخ آخر الدَّايات الذين دونهم في قائمته حسب الأغا بن عودة.

ولعلنا نقف في المستقبل القريب على وثائق تدلنا بقطعية السنة التي توفي فيها صاحب المخطوط.

عصر مؤلف الكتاب

- من الناحية السياسية:

عاصر مُؤلِّفُ "الزَّهرة النائرة" ابن رقيَّة التِّلمساني عصر الدَّايات في معظم أطوار حياته كما يتَّضح ذلك مِن خلال مخطوطه، وقد تميَّز عهد الدَّايات على عكس عهد الآغاوات بالاستقرار النَّسبيِّ في أعلى هرم السُّلطة، فبعد موت "بوصباع" خلفه "الداي محمَّد باشا"، وقد أوصى

"الباي بوصباع" في اجتماع حضره كل مِن الخزناجي، وآغا العرب، وخوجة الخيل، ووكيل الحرج، بأن يتولى مِن بعده "محمَّد عثمان باشا"[1] وذلك لما كان يتوسَّم فيه.

وبالفعل صدقت فراسة "بوصباع" فقد شهدت الجزائر خلال فترة حكمه مِن النَّاحية السياسية استقراراً قلَّ نظيره، وشيَّد "محمَّد عثمان باشا" العديد مِن المآثر العمرانية، كبرج السَّردينة، وبرج الجديد، وبرج رأس عمَّار، وكان الهدف مِن وراء تشيِّد هذه الأبراج حماية مدينة الجزائر مِن الحملات البحرية الأوروبية، كما كان للمنشئات القاعدية التي شيَّدها "محمَّد عثمان باشا" أثراً كبيراً على الحياة العامة[2].

وشهِدت فترة حكم "محمَّد عثمان باشا" حملتين عاصرهما صاحب المخطوط وشارك فيهما، الأولى كانت سنة (1770م) وقادها القبطان الفرنسي كاس (Cass) رجعت خائبة خاسرة، وغنِم فيها الجزائريون أربعين مدفعا وخمسين شِراعـًا كبيراً، وخمسمائة قنطار مِن البارود[3]، بالإضافة إلى دفع الحملة لخسائر الحرب. أمَّا الحملة الثانية فهي التي خُصِّتْ بتأليف المخطوط الذي بين يدينا، وقد شارك فيها صاحب المخطوط "بن رقية التلمساني" شخصيا، وكانت هذه الحملة

(1) – أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، د–ط، الجزائر، دار البصائر، 2008، ص 36.

(2) – نفسه: ص 38،39.

(3) – عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، د–ط، الجزائر، دار الأمة، 2009، ج3، ص242.

تحت قيادة (أوريلي) وذلك سنة (1775م)، تآزر في صدِّ هذه الحملة كل مِن "صالح باي" باي الشرق الجزائري، وخليفة باي الغرب، "محمَّد بن عثمان" والذي اشتهر بمحمد باي الكبير[1]، و"محمَّد باشا" داي الجزائر، وكان لنجاح هؤلاء الرجال في صدِّ الحملة صدًى كبيراً ساهم في استقرار الوضع السياسي في كامل بلاد الجزائر، وساهم هذا الوضع–أي: صدَّ الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر– في إيجاد مادةٍ خبريةٍ ساهمت في نمو الإنتاج الثَّقافي في الجزائر كما سيأتي.

أمَّا في بيلك الشَّرق فإنَّ الاستقرار السياسي كان سائدا فيه منذ زمن طويل نتيجة الإدارة الحسنة لصالح باي لأمور البايلك، وقد ساهم في سير شؤون البايلك سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بطريقةٍ حَسَنَةٍ: الأخلاقُ الطَّيِّبةُ، والخصال الحسنة، التي اشتُهِر بها "صالح باي"[2]، وقد تحدَّثت الكثير مِن المراجع عن تطور الحياة في هذا البيلك اقتصاديا وثقافيا خاصة في السنوات الأولى لحكمه[3].

وعلى العكس تماماً ممَّا كان موجودًا مِن استقرار للوضع السياسي، في كل مِن دار السُّلطان وبيلك التيطري وبيلك الشَّرق، فإنَّ الوضع في بيلك

(1) – الزهرة النائرة: ص88.

(2) – محمد صالح بن العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تقديم وتعليق يحيا بوعزيز، ط الثانية، الجزائر، دار هومه، 2007، ص75.

(3) – ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ط الثانية، الجزائر، دار البصائر، 2008، ص 24–26.

الغرب الجزائريّ كان مغايراً لما هو عليه الحال في المناطق الأخرى، ويمكننا إرجاع ذلك إلى طبيعة البايلك.

فقد تحكَّم نظامٌ ذو طابع عسكري في تسيير شؤون البايلك، وسبب سيران هذا النمط هو التَّواجد الاسباني في البيلك، وبالتَّحديد في مدينة "وهران"[1]، والتي تعد بالنسبة لإسبانيا منطقة عبور رئيسية للتِّجارة الاسبانية مع المناطق الدَّاخلية في الجزائر وأفريقيا الغربية؛ لهذا لم ترض بالتَّخلي عن المناطق التابعة لبيلك الغرب بسهولة[2]،كما سعى الإسبان بسيطرتهم على تلك الأحواز، منع العثمانيين مِن بسط كامل نفوذهم على السَّاحل الغربي للبحر المتوسط مِن جهة، وعدم إكمال مشروع الدَّولة العثمانية من جهة ثانية، بالإضافة لما سبق يوجد الطُّموح المغربي في التَّوسع شَرقًا[3] على حساب الجزائر[4]، ما حمل بايات الغرب الجزائري على فرض النِّظام العسكري في بيلك الغرب.

فنجد "إبراهيم الملياني" على سبيل المثال يركِّز كلَّ جهوده مِن أجل استعادة مدينة وهران -بعد الاحتلال الاسباني لها للمرَّة الثَّانية سنة

(1) – فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجيستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 1993، ص34.

(2)- Clabiana : Reprise d'Oran par les espagnols. In R-A. 8 Anne. N° 43.1864.P14.

(3) – فتحية الواليش: المرجع السابق، ص 34.

(4) – Ernest Mercier: Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la coquété française (1830)، Ernest Leroux، Paris، T3، P70-86.

(1732م) -ويتَّضح هذا الهدف مِن خلال بناء عدد من أبراج المراقبة كـ "برج العسكر" في مدينة "معسكر" سنة(1763م)[1] وغيرها مِن التَّحصينات العسكرية، غير أنَّ وفاته أخَّرت مشروع فتح وهران سنوات أخرى، إلاّ أنها لم تقض على النمط العسكري الذي لبسه بيلك الغرب الجزائري خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر.

أمَّا فيما يخصُّ الوضع في مدينة صاحب المخطوط "تلمسان" فقد كان جِدُّ مترد، بسبب سوء سيرة بعض حكامها وانصرافهم الدَّائم لتحصيل الأموال بطرق شتّى جعلت "المكناسي" يصفهم بأسوأ الصِّفات والنُّعوت فيقول في وصف المدينة وحكامها: « ...ومدينة تلمسان هذه كبيرة مشهورة، كثيرة المياه، والبساتين، والأخبية، والزيتون، والمستغلات، إلاَّ أنَّ الخراب استولى على كثير مِن أطرافها؛ فلم يبق إلاَّ رسومها وزادها عُمَّال الجور والظلم، فقد كان أخبرني بعض أصحابنا كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا أنَّه رأى أهل البلد يشترون الأشياء مِن العطارين وغيرهم بالزَّرع مِن قلَّة الدَّرَاهم بأيدي النَّاس، ومِن قلَّة حياء حاكم البلد وكثرة حوصه وأذية العامة أنَّ كلَّ مَن يمرُّ به مِن حُجَّاج بيت الله يقبض منهم شيئا معينًا على أمتعتهم وحوائجهم مِن غير مبالاة، جبر الله حال المسلمين...»[2] فالمكناسي يصوِّر الوضع في مدينة تلمسان خلال النِّصف الثاني للقرن الثَّامن عشر بشكل لا يختلف كثيراً عن باقي المدن في البيلك.

(1) – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج1، ص287.

(2) – محمد بن عبد الوهاب المكناسي: إحراز المعالي والرقيب بحج بيت الله الحرام وزيارة

وبعد وفاة "الباي إبراهيم الملياني" كان جل مَن في البيلك ينتظر تعيين "محمَّد بن عثمان" بايـًا على البيلك إلاَّ أنَّ الدَّاي اختار الحاج خليل لخلافة "الباي إبراهيم الملياني" على رأس البايلك، ولم يهتم هذاَ الباي بفتح مدينة "وهران" كسلفه كثيراً، إذ شُغِل بإخماد ثورة درقاوة التي بدأ يمتدُّ صداها في البيلك[1]، بعد وفاة "الباي حاج خليل" سنة 1778[2]، خلفه "محمَّد بن عثمان باشا" فسارع في حشد جميع القوات والمستلزمات المادية والمعنوية مِن أجل فتح مدينة "وهران"[3]، ومَن بين الأمور المعنوية التي هيَّأها "محمَّد بن عثمان باشا" بعث الحماسة في صفوف النَّاس عامةً والجند خاصة؛ للجهاد وطرد العدوّ، وهو مِن الأمور التي حملت حسب رأينا "محمَّد بن عثمان باشا" أن يطلب من "بن رقية التَّلمساني" تصنيف "الزَّهرة النَّائرة" وقد وُفِق الباي فعلا في مسعاه، وتمَّ له فتح مدينة "وهران" سنة (1792م)، وبعدها بدأ الباي في تحويل الاهتمام للأمور الدَّاخلية في البايلك فنظم الأمور السياسية والاقتصادية في البيلك، واستطاع إخضاع معظم قبائل الجنوب الغربي الجزائري[4].

القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، حقّقها وقدَّم لها محمد بوكبوط، ط الأولى، الإمارات العربية المتحدة، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003.

(1) – فتيحة الواليش: الحياة الحضارية في بيلك الغرب الجزائري، 25.

(2) – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج1، ص286.

(3) – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البو عبدلي، د-ط، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص247.

(4) – للتفصيل أكثر في هذه النقطة انظر: أحمد بن هطال: رحلة محمد باي الكبير.

في العموم فالوضع السياسي في الجزائر في عصر صاحب المخطوط شهد استقرار نسبيـًا، ساعد على لظهور الحركة الثقافية في الجزائر كان من نتاجها هذا المخطوط الذي بين أيدينا، وهو ما سنتناوله في مبحثٍ مُستقلٍ.

– عصره من الناحية الاجتماعية:

ليس الغرض من هذا المبحث تقصي الوضع الاجتماعي لعصر صاحب المخطوط ككل، وإنَّما غرضنا مِن هذا المبحث توضيح المكانة الّتي يتبوَّؤها، والفئة التي ينطوي تحت ظلها، ومَكانةُ هذه الفئة هي ما أتاح لصاحب المخطوط أن يطَّلِع على ما لم يطَّلعْ عليه غيره من وثائق، ويسّرت له أمر الحصول على مادة خبرية قد لا تتسنّى لغيره خاصة في الجانب المتعلق بحملة (أوريلي) على مدينة الجزائر سنة (1775م) وسنحاول الإجابة عن التساؤل الذي طرحه بعض المحقِّقين الغربين[1] حول كيفية وصول صاحب المخطوط لبعض الوثائق الإسبانية التي أشار إليها في كتابه[2].

شهدت الجزائر خلال عصر المؤلف وعلى طول فترة العهد العثماني تنوعا عِرقيًّا ودينيا ومذهبيا خاصة بالنسبة لسكان المدن[3]، عكس الأرياف التي كانت تتميز بنوع مِن التناسق في التركيب الاجتماعي[4]، حيث قلَّما نقف

---

(1) – BRESNIR . J : Récit indigène de l'expédition D'O'REILLY, P 340, 341.

(2) – انظر: ص 57.

(3) – ويليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبايدية، ص81.

(4) - Raymond, A : Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Paris, Sindibad, 1985, P67.

على اختلاف في المذهب أو في الدِّيانة.

وقد أدى تنوع التركيب الاجتماعي لسكان المُدن الجزائرية إلى وجود نوعٍ مِن الطبقية الاجتماعية، بحيث ضمَّت كلُّ طبقة العديد مِن الفئات كلٌّ فئة منها على نمط اجتماعي وفكري وعقائدي معين[1]، وأهم هذه الطبقات وأوَّلها هي الطبقة الأرستقراطية الحضرية، والتي كانت تمثِّل العصب السياسي والإداري في الدَّولة الجزائرية، تنقسم هذه الطبقة إلى ثلاث فئات أساسية هي:

1 الفئة الحاكمة: كانت تتشكَّل أساساً مِن العسكريين الأجانب، سواء الأتراك أو العلوج (وهي الفئة المسيحية التي اعتنقت الدِّين الإسلامي، فأصبحوا أتراكا بالخدمة[2]).

2 فئة المخزن: كانت تتشكل أساساً مِن قيادات القبائل المتحالفة مع السُّلطة المركزية العثمانية، وكانت هذه الفئة هي عَضُد النِّظام العثماني في الجزائر[3]؛ بحيث كانت يقع على عاتقها العديد من المهام كتحصيل الضرائب وتوفير الدعم العسكري في حالة أي مواجهات عسكرية[4].

(1)- فتيحة الواليش: الحياة الحضارية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، ص 112.

(2) - Diego de Haèdo: Topographie et histoire général d'Alger، TR Berbrugger et Monnereau,3 édition، Alger، Grande Alger Livres، P55.

(3)- Diego de Haèdo : Topographie et histoire général d'Alger, P61.

(4)- Vatin Jean Claude : L'Algérie politique histoire et société, Paris, A colin, 1974, P99.

3 فئة العلماء: لعبت هذه الفئة دوراً محورياً في تاريخ الجزائر العثمانية، حيث كانت تعتبر ملاذا هاماً للدَّايات والبايات مِن أجل فرض شرعية على حكمهم، كما شكَّل الوضع الذي كانت تعيشه الجزائر نتيجة تكالب القوى الأوروبية عليها مكانة سياسية واجتماعية يسَّرت لها الحصول على العديد مِن الامتيازات، فمنصب شيخ الاسلام مثلاً كان يُعدُّ المنصب الثاني مِن حيث الأهمية بعد منصب الحاكم، وهذا مِن الأمور التي أتاحت لصاحب المخطوط الوصول إلى العديد مِن الوثائق الهامة المتعلقة بالإحصائيات، وهي التي يعبر عنها صاحب المخطوط بقوله (مكتوب) ومِن ذلك قوله: «وأنا العبد الحقير رأيت مكتوبا جاء من قرطاجنة ...»[1] أو نتيجة لاتصاله ببعض الأسرى كما صرحَّ هو بذلك عند قوله: «...حتى سمِعْنا من بعض النَّصارى- الذين كانوا معهم في البرِّ ثم أُسِرُوا بأيدينا- أنَّ الصندل مملوءاً بالمجاريح كان يقدم إلى سفينةٍ من سفائنهم ليُفرِّغ المجاريح (كذا) فيها فيقول أهلُ السَّفينة بَعْدُونا لأنَّ سفينتنا مملوءةٌ بالمجاريح امشوا إلى سفينةٍ أخرى»[2] والمكانة التي يحتلها صاحب المخطوط باعتباره واحد مِن علماء الجزائر[3] -كما نصَّ على ذلك بن سحنون الراشدي- هي ما أتاح له الحصول على بعض الوثائق الهامة، وفي هذا نفيٌ لتشكيك بعض المحققين الغربيين في مصدر هذه

(1) – الزهرة النائرة: ص152.

(2) – المصدر نفسه: ص 151.

(3) – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 261.

المعلومات، وقد شكلت الفئة التي انتسب إليها صاحب المخطوط صلةَ وصلٍ بين الفئة الحاكمة والسُّكان[1]، وبالتالي فيمكن عدّ العلماء نخبة دينيةً ذات امتيازات هامة احتلت مِن خلالها مكانة محورية في الحياة المدنية وخولتها القيام بالعديد مِن المهام الرئيسية[2].

أمَّا الطبقة الثانية في مجتمع المدينة في الجزائر خلال العهد العثماني فهي طبقة العامة، وتتشكَّلُ هذه الطبقة مِن بقية سكان المدينة مِن: الحضر، والكراغلة، والأندلسيين، ويهود مِن ذوي المستوى الاقتصادي المتردي، تنقسم هذه الطبقة بدورها إلى العديد مِن الفئات الاجتماعية ضمن نمط متناسق بدوره [3] كحرفيين وتجار[4].

يتَّضح ممَّا سبق ذكره أنَّ لصاحب المخطوط مكانة مرموقة بين فئات المجتمع المختلفة، وبكونه ضمن هذه الفئة المتميزة اجتماعيا واقتصاديا فقد هُيِّئت له أسباب الحصول على العديد مِن المصادر والمعلومات ربما كان من الصعب على غيره الاطلاع عليها، الأمر الذي يعطي المخطوط أهمية كبيرة.

---

(1) – فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر –الكراغلة–نموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004–2005، ص26.

(2) - Stambouli et Zghail : La vie urbain dans le Maghreb in A-A-N, N°11,1972, P212.

(3) – فتيحة الواليش: الحياة الحضارية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، ص 123.

(4) – للتفصيل أكثر انظر: فارس كعوان: المرجع السابق، ص 25–51.

- عصره من الناحية الثقافية:

تُعد الفترة التي عاصرها صاحب المخطوط الفترة الذهبية للجزائر مِن الناحية الثقافية خلال العهد العثماني، إذ عَرفت الجزائر بداية مِن أوائل القرن الثامن عِشر نهضةً فكريةً وثقافيةً ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمجريات الأحداثِ السياسيةِ، ومن بين أهمِّ الأحداث الجارية في المجال السياسي والمؤثرة بشكل إيجابي على الإنتاج الأدبي "فتح مدينة وهران" الأول سنة 1708مـ على يد "الباي بوشغلام" في عهد "محمَّد بكطاش"[1]. حيث ألهم هذا الفتح الكثير مِن العلماء والمؤرِّخين؛ وكان سببا فاعلا –بطريقة غير مباشرة– في بعث الحركة الفكرية والعلمية من جديد، والتي يمكننا أن نبصر أهم تجلياتها في الكتابات الشِّعرية والنثرية، حتى عَدّ الكثير مِن العلماء الكتابة في شأن هذا الفتح –أي فتح مدينة وهران واسترجاعها من يد الاسبان– واجباً على كلِّ مسلمٍ قادرٍ على ذلك.

وفي هذا المقام يقول عبد الرحمان الجامعي: « ...وبعدُ فإنَّه لمَّا منَّ الله تعالى بفتح هذا الثغر الوهراني، ومنَّ على المسلمين من منِّه الربَّاني، فتبسم في وجه الدِّين بعد عبوسه، واستبدل نعيمه الذي كان على الكُفَّار بِبُؤْسه، ومكّن منهم بالأسْرِ والفتك وأوْرثنا ديارهم وأموالهم وأرضـاً سُلِبْناهَا من قبلُ، وَجَبَ لذلك على كلِّ مسلمٍ موجودٍ في زماننا هذا أنْ يستعمل في حمد هذه النِّعمة العظيمة قلمه ولِسانه ويده وجنانه...فإنَّها

---

(1) – فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، ص22.

نعمةٌ لا ينبغي أن تُكْفَرَ، بلْ نِعَمٌ تجلُّ عن أن تحصر، كادت أن تكون كفتْحِ اليمَامَة أو خيبر، ويجب عليه مع ذلك إذاعةَ الثَّناءِ الجميل على مَن أُظهر على يده هذا الخير الجزيل...»[1].

وبالفعل حرّكَ الفتح الأوّل لوهران قرائح العلماء والمؤلفين فبرزت العديد من الكتابات والتقييدات المُمَجِّدة لهذا الفتح والمثنية على مَن كان سبباً فيه، فألَّف بن ميمون "التُّحفةُ المَرضِيةُ في الدَّولةِ البكداشيةِ"، وجاءت كما يذكر ناصرالدّين سعيدوني بعباراتٍ متينةٍ وواضحةٍ في بناءٍ لّغويٍ بليغٍ مُحكمٍ يَغْلُب عليه السّجع ويميلُ إلى المُحسنات البديعية. كما ألَّف مفتي تلمسان "محمَّد بن أحمد الحلفاوي" قصيدةً في اثنين وسبعين بيتاً ويقول شارحها عن المؤلِّفِ: «...فكان ممَّن سارع لامتثال هذا الواجب مؤدياً بعض ذلك الحقِّ اللاّزبِ مفتي الحضرة التّلمسانية لهذا الزمان المُشار إليه في البَيَان بالبنانِ، العالم العَلَمُ، قَلمُ اللّسانِ ولسانُ القلمِ، شيخنا أبو عبد الله سيدي محمَّد بن أحمد الحلفاوي التّلمساني داراً ونسباً المَّالكيِّ مذهباً...»[2].

مجمل القول أنّه قد بدأت في أوائل القرن الثامن عشر بوادر نهضة ثقافية في الجزائر العثمانية وتحديدا في بيلك الغرب الجزائري، والسّبب في هذه النّهضة حدثٌ بارزٌ مثَّله فتح "مدينة وهران" الأوّل سنةَ (1708م)، كما أنّ تشجيع بعض البايات للعلماء والفقهاء من أجل التصنيف كان له أثره الكبير على تطور الحياة الفكرية في هذه المرحلة.

(1) و(2)- عبد الرحمان الجامعي: فتح وهران (مخطوط).

ومِن بين مَن اشتهر بحبّه للعلماء وتشجيعه لهم الباي "إبراهيم الملياني"[1] فشهدت مرحلة حكمه نوعا مِن الازدهار الفكري الطيب، وفي عهد صاحب المخطوط "ابن رقية التلمساني" ظهرت أسباب جديدة دفعت بالحياة الثقافية للتَّطور أكثر -خاصةً في بايلك الغرب الجزائري- على رأسها ضرورة حشد الطاقات البشرية المتوفرة مِن أجل القضاء على الاحتلال الإسباني لمدينة وهران، وهو الأمر الذي دفع بالباي "محمد الكبير" إلى تشجيع العلماء والفقهاء على الكتابة؛ فالغرض كان بعث الحماسة في قلوب الجُند وطلبة العلم لحثهم على طلب الجهاد في سبيل الله وتحرير مدينة وهران من أيدي الإسبان، وهو سببٌ مِن الأسباب التي حملت صاحب المخطوط على تصنيف "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" وصرَّح بذلك في صدر المخطوط بقوله :« ...فهذهِ أوراقٌ تحرِّكُ على الجهادِ أربابَ القلوبِ النَّافرةِ وتنمي في اجتهاد المنكبى عليه زيادةً وافرةً[2] ...» ضف إلى أنَّ الرّعاية الشخصية للباي "محمَّد الكبير" للحركة الفكرية كان لها الأثر البارز على الحياة الثقافية؛ فكثيراً ما اشترى الكُتب أو أمر بنسخها كما يذكر ذلك "بن سحنون الرَّاشدي" في "الثغر الجماني"[3]، بالإضافة إلى أنّ نجاح "محمَّد باي الكبير" في استرجاع "وهران" سنة (1792م)

(1) – فتيحة الواليش: الحياة الحضارية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، ص25.

(2) – الزهرة النائرة : ص 81.

(3) – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص146.

استرجاعا نهائيا؛ نتج عنه رصيدٌ ثقافيٌّ لعلّه الأكبر في مراحل الحكم العثماني ، فظهرت العديد مِن القصائد الشعرية والكتابات النثرية المُشيدة بالفتح وصاحب الفضل فيه فألّف "أبو راس النَّاصر" "نفيسةُ الجُمانِ في فتحِ ثُغْرِ وهرانَ"[1]، كمَا قيَّد بن سحنون الراشدي أطوار الفتح وما يتعلّق به من أخبار وهران والقطر الجزائري في قصيدة "الثغر الجماني"[2]، وشرح كلٌّ منهُما قصيدته بأمر من "محمَّد باي الكبير"، وألّف "ابن زرفةَ" قصيدته في مدح فاتح وهران "محمَّد باي الكبير" وسمَّاها "الرّحلةُ القُمَرِيةُ في السّيرةِ المُحمّدِيةِ"[3]، ومن الرحلات التي اقترح الباي "محمد الكبير" على أصحابها كتابتها رحلة "ابن هطال" الذي قيّد رحلته رفقة الباي إلى الجنوب الجزائري وسماها" رحلة محمَّد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"[4].

ولم تقتصر الحركة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني على كُتب السِّير والتَّراجم التي مرَّت بنا، وإنَّما تعدَّتها إلى علوم أخرى وفي مجالات شتى: كاللغة، والتفسير، والرقائق، والفقه، والمنطق، وغيرها

(1) – محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق محمد غالم، د-ط، منشورات CRASC، الجزائر،2005، ج2، ص 189-195.

(2) – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر نفسه.

(3) – فتيحة الواليش: الحياة الحضارية في بيلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، ص165.

(4) –أحمد بن هطال: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي 1785، حرّرها وقدّم لها محمد بن عبد الكريم، د-ط، دار ارتياد الآفاق، د-م، د-س، ص 35-92.

مِن العلوم، فمن ذلك ما ذكره أبو راس الناصر من تآليف له، ففي النَّحو مثلاً وضع "أبو راس" شرحا على كتاب القاموس سمَّاه "ضياء القابوس على كتاب القاموس" وشرح آخر في البيان سمَّاه "نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني" والعديد من الشروح على القصائد كشرحه على لامية العرب للشنفرى والتي سمَّاها "نيل الأرب في شرح لامية العرب"[1]، كما وضع علي بن عبد القادر بن الأمين رسالة في الأدب العربي سمَّاها "إتحاف الألباب بفصل الخطاب" وقد وضعت هذه الرسالة سنة 1186هـ[2]، كما قام "ابن سحنون الراشدي" بوضع شرح كبير على قصيدة "العقيقة" التي كُتبت في مدح الرَّسول ﷺ وصحابته الكرام التي وضعها سعيد المنداسي سنة 1088هـ غير أنّ "ابن سحنون" لم يكمل شرحه بسبب طلب "محمَّد باي الكبير" منه تلخيص كتاب "الأغاني" مِن جهة، ومِن جهة أخرى بسبب الوباء الذي حلّ بمدينة "معسكر" وأجبره على الخروج منها مُخلِّفا وراءه الشرح الكبير على قصيدة العقيقة الذي استهلَّه بالمدينة[3]، كما تكلَّم "أبو راس" بدوره على شرح وضَعه على القصيدة المذكورة آنفا وسمّاه "الدُّرة الأنيقة في شرح العقيقة"[4]، كما تحدَّث الأستاذ "أبو القاسم سعد الله"

(1) – أبو راس الناصر: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص 180-181.

(2) – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، د-ط، الجزائر، دار البصائر،2007، ج2، ص166

(3) – المرجع السابق: ص181.

(4) – أبو راس الناصر: المصدر نفسه، ص181.

عن وضع كلّ مِن "أبي راس الناصري" و"محمَّد الزجاي" تفسيراً للقرءان الكريم، عُلِم عن الأوَّل بأنَّه يقع في ثلاثةِ أسفارٍ يحتوي كلَّ سفر على عشرين حزباً وسمّا هذا التفسير "التيسير إلى علم التفسير" كما وضع "محمَّد الزجاي" تفسيرا للقرءان الكريم إلاَّ أنّه غير كامل إذ اقتصر على الأحزاب الخمسة مِن القرءان أو الأجزاء الخمسة أو السُّور الخمسة إذ أنَّ مَن ترجم له اكتفى بالتَّكلم عن تفسير "الخمسة الأولى" ولم يبين ماهيتها[1]، وقد استمر نشاط وتطور الحياة الثقافية إلى غاية سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وخيرُ ما نستدل به في هذا المقام تلك المساجلات الشعرية التي كانت بين العلماء، والتي أورد جزءاً منها "ابن عمَّار" في مختاراته[2].

وبالتالي يمكننا القول أنّ الحياة الثقافية في الجزائر خلال بداية القرن الثامن عشر وإلى غاية النّصف الأوّل من القرن التاسع عشر كانت ميدانا خِصبا للإنتاج الثقافي، وهذا الجو كان أحد الأسباب التي حملت صاحب المخطوط "ابن رقيّة التّلمساني" على وضع مخطوط "الزهرة النائرة".

(1) – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 18- 19.

(2) – أحمد بن عمار وآخرون: مختارات مجهولة من الشعر العربي، تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط الأولى، بيروت، لبنان، دار الغرب الاسلامي 1992، ص 39-92.

الفصل الثاني:

التعريف بالكتاب

1. مضمون الكتاب
2. أهمية الكتاب
3. المنهج والأسلوب اللغوي للكتاب
4. مصادر الكتاب

1- مضمون المخطوط:

يُعد التَعرضُ لمضمونِ أي مخطوط في التَّقديم والدِّراسة على جانب كبيرٍ مِن الأهمية فالتعرض للمضمون يُبرز الجانب الذي أولاه صاحب المخطوط الأهمية، كما أنّ عرض محتوى المخطوط يُسَهِّل على الباحثين والدّارسين على حدِّ السواءِ فهم موضوع الكتاب والسبب من وراء وضعه.

واستناداً إلى مخطوط "الزهرة النائرة" فقد تناول مضمُونه بصفةٍ عامةٍ الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر، وما ترتّب عن هذه الحملات لدى الجانبين، وألقى صاحب المخطوط الضوء على جزئياتٍ هامةٍ أغفلها الكثير من مؤرخي تلك الفترة كعدد السُفنِ في كلِّ حملةٍ، وأنواعها، وعَدَد من عليها من الغزاة، والأسلحة الموجودة على متنها ومدى تطورها، وعدد الخسائِر في كل حملةٍ لدى الجانبين، ونوعية هذه الخسائر.

وأوَّلُ ما ابتدأ به مُصنِّفُ "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" هو التَّمهيد لكتابه مِن خلال توضيح السَّبب الذي حَمَلَهُ على وضع هذا المُخطوط، ثمَّ انتقل الى عرضِ المضمون والذي استهلّه بالكلام عن قدوم الأتراك، كما هو حال غالب مَن أرَّخَ لهذه الفترة[1]، وسبب ذلك -حسب صاحب الكتاب الذي بين أيدينا- أنَّ الأتراك هم أكثر مَن يقوم بالجهاد في الجزائر، بالإضافة إلى أنّ أغلب من

(1)- انظر في ذلك: فتح وهران لعبد الرحمان الجامعي (مخطوط).

يقود صَدَّ الحملات الأوروبية، ودفعها هم مِن الأتراك، بعد ذلك انتقل الى سَرْدِ الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر فكانت أولى الحملات المذكورة في كتابه الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر في أوائل سنة (925هـ/ 1518مـ) وما ترتب عن هذه الحملة، ثمَّ عرّج إلى الكلام عن الصِّراع الداخلي بين الإخوة بربروس وأبي حمو الثالث سلطان "تلمسان"، وسبب هذا الصراع[1]، الذي كانت تغذيه أطراف أجنبية ذكر المُصنِّفُ منها الإسبان وغضَّ الطّرف عن سلاطين بني مرين[2].

بعد ان استوفى صاحب المخطوط الكلام عن الصِّراع الدَّاخلي وكيفية انتهائه، تَحدّث عن إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية وكيفية ذلك، والذي يُعتبر مرحلة حاسمةً في تاريخ الجزائر، والمنطقة ككل، تبدأ هذه المرحلة حسب صاحب المخطوط بالحملة الاسبانية الثانية التي كانت في أواخر سنة (925هـ/ 1519مـ)، والتي قادها هقو دو منكادو (Hugo de Mancado). ثمَّ انتقل في ترتيب زمني إلى الكلام عن الحملة الأوروبية على مدينة الجزائر والتي قادها الملك الإسباني بنفسه في عهد حسن آغا وذلك سنة (948هـ/ 1541مـ) وهي الواقعة الثالثة مِن حيث الترتيب الزمني، والتي فشلت بدورها في اسقاط الجزائر، ونجم عنها اعتزال شارل الخامس أو شارل كان (Charles Quint) السياسة ودخوله في الرهبنة، وقد

(1)- انظر تفصيل ذلك ص 94 وما يليها.

(2)- من الأسباب التي حملت سلاطين بني مرين على تغذية الصراع بين الزيانيين والعثمانيين خوفهم على سلطانهم من النفوذ العثماني المتزايد.

أخذت هذه الحملة حيزاً هاماً مِن المخطوط، وهذا كما يذكر صاحب المخطوط مِن أجل تذكير أهلّ الجزائر ببطولات أسلافهم.

ثمَّ انتقل إلى الكلام عن الحملة الانجليزية على مدينة الجزائر سنة (1071هـ/ 1660مـ) في فترة حكم رمضان بلوك باشي والتي انتهت بمعاهدة بين الطرفين أَملى شُرُوطَها الجزائريون.

وبعد إنهاء كلامه عن الحملة الانجليزية انتقل للحديث عن حملة أخرى كان الطّرف المُهاجم فيها هذه المرّة هو الأسطول الفرنسي بقيادة دوكان أو دوسان (Duquesne) وذلك سنة (1683هـ/ 1093مـ) والتي نتج عنها صُلحا مُخزياً بالنِّسبة للطَّرف الجزائريِّ لم يرض أي أحد في الجزائر، ما حمل بعض الأتراك إلى اغتيال حاكم تلك الفترة بابا حسن، كما أشار لخلافة حسن ميزومورطو لبابا حسن، وتصرّفه مع الحملة الفرنسية المتجددة في عهده سنة (1684).

ثمَّ في عجالة تحدَّث صاحب المخطوط "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرحمان الجيلاني" عن الحملة الدنماركية والتي كانت تحت قيادة كاس (Caas) على مدينة الجزائر وذلك سنة (1184هـ/ 1770مـ) في عهد محمَّد باشا المكروي، وكيفية تصرف حاكم هذه الفترة مع العمارة الدنماركية.

وختم صاحب المخطوط حديثه عن الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر بالحملة الاسبانية سنة (1189هـ/ 1775مـ) تحت قيادة أوريلي (O'Reilly)، والتي كان أحد المشاركين فيها، وهو ما جعله يُسهبُ في

الحديث عنها، بالإضافة إلى أن محمَّد باي الكبير كان أحد أمرائها، لهذا نجده يُفصّل في أطوارها ومراحلها، وتُعدُّ هذه الحملة هي أساس كتابة هذا المخطوط.

ثمَّ أنهى كلامه بخاتمة جاء فيها التَّذكير بسبب وضع هذا الكتاب، وذِكرُ نَسَبِ صاحب الكتاب، وسنة الفراغ من تقييده، على عادة مؤلفي تلك الفترة.

2- أهمية الكتاب:

مِن الطَّبيعي أن يحظى كلِّ مصدر مِن المصادر التاريخية الاسلامية خلال العهد العثماني بأهمية كبيرة لدى كلِّ باحثٍ أو دارسٍ، والسببُ مِن وراء هذا الاهتمام قِلّة المصادر الكتابية المُؤرِّخة لهذه الفترة، خاصةً وأنّ معظم كتابات هذه الفترة ظلت إلى أمدٍ قريب كتابات عَرَضِية لرحّالة أو قناصل أو أسرى أوروبيين حَلّوا بالجزائر أو مرُّو بها أما أهل البلاد فكانت آفتهم قلة الاعتناء بتدوين تاريخهم، وإن دونوا فإن السلطات الفرنسية سعت إلى طمسها غداة احتلالها للجزائر.

ومخطوط "الزَّهرة النَّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" له أهمية كبيرة، وتبرز هذه الأهمية في شَقين؛ أوّلهما يتمثّل في مضمون مخطوط "الزهرة النَّائرة" وقد تناولنا هذا الشَق في مبحث خاص[1]. أمّا ثاني شَق في الأهمية فيتمثّل في استئناس المؤرخين – سواءً

(1) – انظر المبحث الخاص بمضمون المخطوط: ص 39-41.

المعاصرين أو مَن جاء بعده–بالمخطوط.

ومِن أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا على "الزهرة النائرة" ورجعوا إليه في كُتبهم "أبي راس الناصر" في شرحه لنظمه في فتح وهران المعروف بـ"عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" كما ذكر ذلك مُحقِّقُ الكتاب[1]. واعتمد "أحمد بن محمّد بن سحنون الراشدي" على "الزهرة النائرة" ولو أنّه لم يصرِّح بذلك فإنّ الاقتباس مِن "الزهرة النائرة" يتجلّى بوضوح عند كلام "ابن سحنون" على حملةِ الملك شارل كان (Charles Quint) على مدينة الجزائر سنة(1541مـ) وقد قام ابن سحنون بنقل شبه حرفي للعبارات الموجودة في الزهرة النائرة، أو أنه استعان مباشرة بكتاب "غزوات خيرالدين وعروج" كما يمكن أن يكون قد استعان بالمخطوط في موضع آخر عند كلامه عن دور "محمد باي الكبير" في صد حملة (أوريلي) (O'Reilly) على مدينة الجزائر سنة (1189هـ / 1775مـ) ، بل إنّه أعرض عن ذكر تفاصيل الحملة ومشاركة الباي "محمَّد الكبير" فيها؛ بسبب شهرة الحملة وتدوينها مِن طرف العالم الجزائري "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرحمان" صاحب مخطوط "الزهرة النائرة"[2]. وتتجلّى أهمية المخطوط أكثر بقيام "ألفونس رسو" (Alphonse Rousseau) سنة(1840مـ) بترجمة نصّ المخطوط وتقديمه للقارئ الأوروبي عامة والفرنسي على وجه الخصوص، كما قام بريني (Bresnir) بترجمة جزء

(1) – محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، ص200.
(2) – المصدر نفسه: ص 261.

مِن مخطوط "الزهرة النائرة" واعتبر(Bresnir) أنّ الكتاب هو مرآة تعكس وجهة نظر الأهالي للحملات الأوروبية على مدينة "الجزائر" وبالأخص حملة أوريلي (O'Reilly) على مدينة الجزائر سنة(1189هـ/ 1775مـ) ونُشرت الترجمة في المجلة الأفريقية سنة (1864مـ) تحت عنوان (حملة أوريلي من خلال إحدى الكتابات المحلية سنة 1775) " Récrit Indigène de l'expédition d'O'Reilly "[1].

ولا يتوقف الأمر على "أبي راس النّاصر" و"ابن سحنون الراشدي" في الاعتماد على "الزهرة النائرة" فالأغا "بن عودة المزاري" اعتمد على ما جاء فيه وصرّح بذلك في عدة مواضع، فنقل حملة شارل كان (Charles Quint) على الجزائر سنة (1541مـ) بمعظم المفردات الموجودة في "الزهرة النائرة"[2]، كما قام في موضع ثان بنقل قائمة لحكام الجزائر منذ دخول "عروج" و"خير الدين" إلى الجزائر حتى تولي "الداي إبراهيم" الحكم سنة (1222مـ) كما ردّ "يوسف بن محمَّد الزَّياني" في "دليل الحيران" على ما جاء به صاحب "الزهرة النائرة" بإشارته إلى الخطأ الذي وقع فيه صاحب "الزهرة النائرة" في ترتيب حكام الجزائر[3].

(1) –Bresiner: récrit indigène de l'expédition d'O'Reilly، R-A، N°8, 1864، p345.

(2) – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج1، ص 220- 221.

(3) – محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البو عبدلي، د–ط، الجزائر، (ش و ن ت)، 1979، ص184.

بالإضافة إلى ما مرّ بنا لم يبق مخطوط "الزهرة النائرة" حكراً على المؤرخين الجزائريين فقط بل إنَّ أهميته دفعت بالمؤرخ "جون ولف" الأمريكي إلى الرجوع إلى المصدر الذي اعتمده صاحب الزهرة النائرة في كتابه، ولو أنّه لم يصرح بذلك[1].

كما أفرد الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" للزهرة النائرة جزءاً مِن الدِّراسة في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي[2].

وممَّا يزيد في أهمية المخطوط الذي بين أيدينا اعتماد صاحبه على العديد مِن المصادر النَّادرة والتي تتمثل فيما نقل في الروايات الشَّفوية لأشخاص شاركوا في صدِّ الحملات أو سمعوا عنها، كما أضْفت المشاركة الشخصية لصاحب المخطوط في الواقعة التاسعة وهي حملة "أوريلي" (O'Reilly) أو واقعة الحراش كما تذكر في المصادر الجزائرية أهمية خاصة للكتاب.

بهذا الشكل يتَّضح لنا جليا بأنَّ لمخطوط "الزهرة النائرة" أهمية كبيرة لا يمكن إهمالها وهذا ما دفعنا لدراسة هذا المخطوط ومحاولة إخراجه للنُّور حتى تَعُمَّ الاستفادة مما جاء فيه.

(1) – جون ب ولف: الجزائر وأوروبا (1500–1830)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، د–ط، الجزائر، عالم المعرفة، 2009، ص32.

(2) – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 339- 340.

3- المنهج والأسلوب اللغوي للكتاب:

أ. المنهج:

مِن الظُلم اخضاع الأساليب والمناهج التي دَوَّن بها المُؤرخون المُتقدمون كُتبهم إلى مِحك الدِّراسات الأكاديمية الحالية، ومحاسبة هذه التَّقييدات بما تحاسب به الدِّراسات الأكاديمية اليوم، إذ لم يتوفر ضَابطٌ مُعَيّنٌ في تلك الفترة أو قانونٌ علميٌّ يَلزُم التّقيدُ به في الكتابة[1]، ولهذا يجب عدم إصدار أحكام خاصة بالمنهجية فيما تخصُّ الكتابات المتقدمة، بل مِن المُعيبِ التَّفكير في ذلك أصلاً، ومَن قام بذلك فقد أقام على نفسه الحجّة؛ إذ حاسب قوماً على أمرٍ لم يعرفوه – نقصد بشكله الحالي – فمعظم القوانين التي في منهجية الكتابة أو التقيِّد وُضعت حديثاً إلاّ أنّ معظم الكتابات التّاريخية السَّابقة للعصر الحالي لم تخرج عن المناهج المتعارف عليها حاليًا – لمن دقّق النَّظر ولم يتحامل على كلِّ ما هو قديمٌ أو تراثيٌ – وهذا الأمر كان بشكل تلقائي طبعـًا، حاله كحال مَن يقول الشِعر وهو لا يعرف من بُحوره إلاّ النزر القليل أو لا يعرف منها شيئا.

وهو الحال الذي نجده عند صاحب مخطوط "الزهرة النائرة" فقد غلب على متن الكتاب المنهج الوصفي معتمداً أساسٍ لذلك على السّردِ القَصَصيِّ، كوسيلةٍ لإيصال صورة عن فترة معينة أو حملة ما، والأمثلةُ على هذا الكلام كثيرةٌ لا يُحصر عَدَدُها، ومِن الأمثلة على نمط السَّرد

(1) – إذا استثنينا من ذلك علوم الحديث والقرءان فالكتابة فيها كانت ومازالت تُلزم الخائض فيها معرفة العديد من القوانين في المصطلح واللغة وغيرهما من العلوم.

القصصي، حديثه عن قلعة بني راشد، والحال السَّائدة فيها قائلاً: **«...كانت قلعةُ بني راشدٍ مِن أغنى بلاد اللهِ زرعـًا وضرعـًا، تذهب الميرةُ منها إلى كلِّ ناحيةٍ...»**[1]، كما يكشف صاحب المخطوط عن جُملةٍ من **المتغيرات** بين ماضي مدينةِ الجزائر وحاضِرها، ومِن الأمثلة على ذلك **نقله** لتحول أوضاع مدينة الجزائر قبيل دخول الأتراك وبعد دخولهم **إليها**، وذلك على لسان خيرِ الدين في حديثه لعلماء الجزائر وأعيانها **بقوله**: «...أَمَّنتُ بلادكم مِن العدُوِّ بما تركت فيكم مِن المجاهدين، **ومَن** وصل إليكم مِن أهل الأندلسِ، وما تركت عندكم من العُدَّةِ؛ لأنّي **تركت** في بلادكم أكثر مِن أربعمائةِ مِدفعٍ، ولم يكن في بلادكم ولو مدفعٌ **واحدٌ**...»[2].

كما استطاع صاحبُ المخطوط مِن خلال اعتماده على المنهج **الوصفي** رسمَ ملامحٍ دقيقةٍ لسير الحملات الإسبانية خاصةً والأوروبية **عامةً**، فكثيراً ما نجده يفصِّل في عددِ السُفن وأنواعِها وأماكن رُسُوِهَا وعدد **قذائِفِهَا**، وما نتج عن كلِّ حملةٍ، ومثال ذلك قوله: «...وبعدَ تلك الليلةِ **صَارُوا** يَرمُونَ ليلاً ونهاراً، دام لهم هذا الفعلُ -لعنهم الله- ثلاثـًا وعشرينَ **ليلةً**، ورَمَوْا في تلك الأيامِ خمسةَ آلاف بومبا، وانهدت بها ثلاثمائةِ دارٍ، **ومات** بها من المسلمين قدرَ أربعينَ نفسـًا...»[3]، وقوله أيضا :«... و رمى

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 94.

(2)– انظر: الزهرة النائرة، ص 107.

(3)– انظر: الزهرة النائرة، ص 131.

اللّعين في هذه الليلةِ خمساً وأربعينَ بومبا، وقُرْب الصبح رمى أكثر من ثلاثمائةِ مدفعٍ بالكورةِ في الهواءِ ....»[4].

وقد وُفِّقَ صاحبُ المخطوط باعتماد هذا المنهج، وممّا يُؤكد على أنّه على درجةٍ كبيرةٍ من النّباهةِ والدِّقةِ تقييده مُعظم الحملات البحرية على مدينة الجزائر بالسنة الهجريةِ والشهرِ القمريِ، إضافة إلى الشهر الشمسيِّ والذي يصطلح عليه اسم الشّهر الروميّ، ضِفِ إلى ذلك ذكر اليوم والليلة والسَّاعة، فيقول في تقيده للحملة الدنماركية على مدينة الجزائر: «...وسنةَ أربعٍ وثمانينَ ومائةٍ وألفٍ، يومَ الأحدِ، ثامنُ يومٍ من ربيع الأوّل، وهو اليوم العشرون مِن ينيه مِن الشَّهر الرُّومي، جاء صاحبُ الناظورِ مِن بوزريعةَ بأنَّه رأى إحدى عشر جفناً بِسنجاقِ الدنمرك ...، ولم يصل إلى الجزائر إلا يومَ الثلاثاءِ بعد الزّوالِ، فعند ذلك رَسَوْا تجاه "برجِ السردينةِ" ....»[1].

ومِن جهة أخرى سَيُلاحظ القارئ لكتاب "الزهرة النائرة" عاطفتي الكُرْهِ والبُغْضِ الشّديديْنِ اللذين يُكنُّهما صاحبُ المخطوط للنَّصارى، وهو يَعكِس دينه وعقيدته وصورتهما في مجتمعه وبيئته إلى حَدٍ بعيد كما يقول الأستاذ "ناصرالدِّين سعيدوني"[2]، ويُظهر هذا الاحتقار بالإعراضِ عن ذِكرِ أسمائِهم وقادتهم في الحملات البحرية، ولقائلٍ أن يقولَ ما أدرانا أنَّه يَعرِف أسمائَهم مِن الأساس، فالإجابةُ عن ذلك تكون بقولنا أنّ مَن علِم سنةَ قدوم الحملة ونوع المراكب التي شاركت فيها، وعدد الملاّحين

(1)–انظر: الزهرة النائرة، ص 136.

(2) – ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الاسلامي، ص 426.

فيها وزَمن رُسوِهَا ومكان هذا الرسو، ليس مِن الصّعب عليه معرفة مَن يقودها، وخير دليلٍ على ما نقول إعراضه عن ذكر اسم شارل كان (Charles Quint) في حملته على مدينة الجزائر سنة(1541م) ، مع معرفة صاحب المخطوط أنّه ملكُ أسبانيا وأنّه أزعج خير الدين مِن تونس – أي طرده منها – وأنّه اعتزل السياسة بعد فشلِ حملته على المدينة ودخوله الرّهبنة ، ومَن اطَّلع على هذه الأمور سهل عليه معرفة الأسماء المؤثرة فيها، وللدَّارس أن يطرح سؤالاً آخر بقوله: "أنَّ الحملات الأولى قد نقلها تقريبا بشكل حرفي مِن كتاب "غزوات خير الدين وعروج" والأسماء غير موجودة هنالك أيضـًا!" يُرَدُ على هذا السؤال بأنَّه كان شاهدَ عيانٍ في الواقعة التاسعة وهي الواقعة التي أخذت أكبر حيزٍ في الكتاب ، ومع ذلك لم يَذكر اسم قائد هذه الحملة أوريلي (O'Reilly)، كما أنّ صاحب المخطوطِ صَرَّحَ بنقله عن الأسرى النَّصارى الذين وقعوا في أيدِي البحّارة الجزائريين وكُتبهم التي سمّاها بالغزوات[1] فكان مِن السَّهل عليه معرفة هذه الأسماء، بل اكتفى بنعت كلّ شخصٍ من قادة الحملات باللّعين أو الطّاغية، والأمثلة على ذلك في النَّص كثيرة، فيقول على سبيل المثال عند الانتهاء من سرد وقائع الحملة الاسبانية الثانية على مدينة الجزائر سنة (1519م): « ...فلمَّا سمِع الطّاغيةُ –يقصد شارل كان– بما لَحِقَهم من أهل الجزائر ثَمَّ. لَطَمَ وجهَه وشقَّ ثيابه ونادى بالويلِ والثُبور...»[2]، وقوله في

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 155.

(2) – انظر: الزهرة النائرة، ص 55.

نفس السياق عن حالة الملك الإسباني "شار لكان" بعد فشل حملته الشهيرة على مدينة الجزائر 1541 في عهد حسن آغا: « ...ولمّا رأى اللّعين ما حلّ به مِن هذه المصيبة حيث عكس الله آماله ونكّس أحواله، ولم يظفر مِن أهل الجزائر إلاَّ بهذا الهلاك الذي يشاهده..»[1]، ولم تقتصر عاطفتي الكراهية والبغض على النَّصارى وحدهم، بل امتدَّت إلى كلِّ مَن تعاون وإيّاهم أو وقف في صفِهم كـ"أبي حمو الثالث الزَّياني" فأحجم عن ذكر اسمه واكتفى بنعته بالخبيث قائلاً: «...فتوجَّه السلطان الخبيث الى ناحية الجزائر لطلب خير الدين...»

وفي العموم فإنَّ مَا مرّ بنا مِن نعوتٍ وصف بها صاحبُ المخطوط النَّصارى وأشياعهم ليست حكراً عليه، فقد اشتُهر ذلك بين أقرانِه في الفترة العثمانية، ومرد ذلك حسب الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" راجع إلى الحساسية تجاه النَّصارى لمنافستهم الدينية والحضارية، أمّا اليهود فلمنافستهم المادية والسياسية، حتّى أنَّه لا يَكادُ يُذكر النّصرانيُ أو اليهوديُ إلاَّ وأضيفت له عبارة لعنه الله أو أخزاه الله، ونحوه مِن عبارات الامتعاض والكراهية[2].

ب. الأسلوب اللغوي:

مِن أهمّ مميّزات الكتابات التَّاريخية في العهد العثماني في الجزائر مِن حيث الجانب اللغوي والأسلوب والمفردات المستعملة بساطتها

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 121.

(2) – أبو القسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 446.

وتواضعها، وإهمال الكثير مِن مُصنّفي هذه الفترة القواعد النحوية والصرفية، وغلبَةُ اللّهجة المحلية للناسخ -في الكثير من الأحيان- على النَّص، وفي هذا السياق يشير "أبو القاسم سعد الله" في كلامه عن غلبة اللَّهجة المحلية لناسخ كتاب "منشورِ الهداية"[1] على نصِّ الكتاب، لكن هذا لا يعني بأي حال مِن الأحوال أن أصحاب التَّصانيف الأصليين كانوا مُتحكّمين بناصية اللّغة، وفي هذا الشَّأن يذكر الأستاذ "عبد الله حمادي" في تحقيقه لمخطوط "سيرة المجاهد خير الدين" أن ما يمكن قوله عن أسلوب المخطوط ، ومدى تَحكّم صاحبه في البيان العربي أنّه لا يرقى إلى مستوى المُصنّفات العربية التراثية وقوله أيضا: «...وهو ما جعل أسلوب البيان العربي في هذا المخطوط يجيئ مذبذباً لا يستوفي الشروط المعروفة، وهو ما اتضح جليّاً في الضّعف الأسلوبي واللغوي الذي حفل به هذا المخطوط .....»[2] كما نَصَّ على ذلك أيضا الأستاذ "ناصرُ الدين سعيدوني" في تحقيقه لكتاب "قانون أسواق مدينة الجزائر" بقوله: «... أمّا إذا انتقلنا إلى استعراض المخطوط مِن حيث الأسلوب واللغة والعبارات، فإنّنا نجدُ مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر كُتب بلغةٍ متواضعةٍ تميل إلى العامية، ولا تلتزم بالتّعبيرِ السّليم، ولا تراعي القواعد النّحوية

(1)– عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم أو الولاية، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، ط الأولى، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص 22.

(2)– مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق عبد الله حمادي، د-ط، الجزائر، دار القصبة، 2009، ص38.

والإملائية، ويَنعدم فيها الاسترسال والعرض الواضح ...»[1] كما يتكلَّم الاستاذ "نور الدين عبد القادر" عن مخطوط "تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها" مِن حيث الأسلوب اللغوي عن بساطة لغة المخطوط وسذاجتها بالإضافة إلى كثرة استعمال اللهجة المحلية[2]، والأمر نفسه أشار إليه "أحمد توفيق المدني" في تحقيقه لمذكرات "أحمد الشَّريف الزَّهار" بقوله: «....واللغة التي يستعملها الحاج أحمد عربية بسيطة، لم يحاول صاحبها إدخال مسحة أدبية عليها...»[3]، ويستمر تعليق الأساتذة عن الكتابات المحلية في الجزائر خلال العهد العثماني، بل حتى بعد فترة وجيزة من الاحتلال الفرنسي للجزائر فيقول الأستاذ "يحيى بوعزيز" عن اللُّغة التي كُتب بها مخطوط (طلوع سعد السعود): «...لغة المخطوط سهلةٌ وبسيطةٌ ولكنها كثير الأخطاء والأغلاط اللغوية في النحو والصَّرف والرَّسم[4] والبلاغة ويطغى عليها السّجْعُ المملُّ غير البلاغي، وغير السليم مِن الأخطاء في اللغة والقواعد...»[5].

(1)- عبد الله بن محمد الشويهد: قانون أسواق مدينة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006، ص13.

(2)- ابن مفتي حسين بن رجب شاوش: تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، ط الأولى، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة، 2009، ص21.

(3)- أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر، ص27.

(4) – انظر عن رسم المخطوط ، ص66-67.

(5) – الأغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج1، ص35.

ومُصنَّف " **الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**" لا يَشُذّ عن معاصريه وأقرانه في الفترة العثمانية، فقد استعمل لغةً بسيطةً بعيدةً عن التّكلف والتّصنُعِ اللغويِّ، كما أنّه كثيراً ما لجأ الى استعمال اللّهجة المحلية أو -الدارجة كما تعرف- والأمثلة في النَّص على ذلك كثيرة جِداً، فعلى سبيل المثال يقول: «...وصاروا يحللون على الصلح...» في إشارة لإلحاح النَّصارى على "ميزو مورطو" لعقد معاهدة الصلح، واسْتِعْمَالُ صاحب المخطوط المُفرِط لمفردة «متاع» والتي يَقصد بها غالباً الدلالة على ملكية الشيء لجهة معينة فيقول مثلا: « ..ووضع المهاريز متاع البومبا..» أي: (وضع المقذوفات الخاصة بالمدافع).

كما لا يخلو النَّص مِن بعض الجمل ذات التراكيب الركيكة، مثال ذلك قوله: «...وبذلك أمنوني وتركوني أن أخرج...»، وقوله في نفس السِّياق «. لأنّه أمر كذلك اذ لم يكن له محل مناسب لنزول محلته.»[1]، وكان الأجدر أن يقول: «...لأنَّه أمر بذلك اذ لم يكن له محل يناسب نزول محلته ...»، وقوله في موضع آخر: «فلزم عروج وكذلك من معه من الغزاة ...»[2] وهذا لا يستقيم لغة إذ أنّ مَن مع عروج رايس ليسوا هم الغزاة، وإنّما وقع عليهم فعل الغزو مِن النَّصارى، فكان الأجدر به أن يقول: «... ومن معه من المرابطين أو المجاهدين أو المجندين».

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 151.

(2) – انظر: الزهرة النائرة، ص87.

وزيادة على هذا نلاحظ استعانته المفرطة بلغة "أكلوني البراغيث وهي لغة بالحارث بن كعب وجماعة مِن العرب ترى إثبات ضمير المثنى والجمع مع الفاعل[1]، فيوجد فاعلين لفعل واحد، وهي لغة ضعيفة، والأمثلة على هذه اللُّغة في النَّص كثيرة فمن ذلك قول صاحب المخطوط: «... فوجهوا النَّصارى إليه سبعة آلاف دينار...»[2] وقوله في موضع ثان: « فلما دخل سلطان تلمسان في عمالة خير الدين أطاعوه أهل العمالة ...»[3].

وفيما يخصُّ سبب استعانة معظم مؤرخي هذه الفترة باللهجة المحلية في معظم التقييدات التاريخية الخاصة بالعهد العثماني، فنقول أنّه يمكن إرجاع ذلك للعديد مِن الأسباب يشترك فيها صاحب المخطوط مع غيره مِن نفس العصر، وأهمها في نظرنا خمسة أسباب هي:

- أولا: تواضع المستوى الثقافي إن لم نقل انحطاطه بشكل عام، وهذا ليس في القطر الجزائري فحسب، وإنّما معظم العالم الإسلامي كان يعاني من ركود ثقافي وفكري كبيرين، ولا يعني هذا بالضرورة أنّ كل التّقييدات الجزائرية كان مستواها متدني، وإنّما توجد الكثير مِن الاستثناءات كما هو الحال بالنسبة لكتابات المقري، وأبي راس الناصر، وابن عمّار، وغيرهم.

(1)- انظر تفصيل ذلك في كُتب اللغة.

(2)-انظر: الزهرة النائرة، ص95.

(3)-نفسه، ص 98.

- ثانيا: معظم هذه التَّقييدات كانت شخصية، خاصةً بأصحابها، فهي أشبه ما تكون بالمذكراتِ الشخصية في وقتنا الحالي، والحال نفسه عند الكثير ممن ألف في هذه الفترة مثل صاحب كتاب "منشور الهداية" إذ يقول محقِّقُ المخطوط الأستاذ "أبو القاسم سعد الله" في تقديمه للكتاب المذكور: «...إنّه-أي صاحب الكتاب- جعله نوعًا مِن المذكرات...»[1]، وهو نفس حال صاحب مخطوط "الزهرة النائرة" إذ يقول: «...إنَّما حررت هذه الأوراق، وجمعت هذه الأحرف لتكون تذكيرا لي..»[2]، وهو ما يُبرر في بعض الأحيان عدم تبيض الأعمال، ووجود العديد مِن الأخطاء النَّحوية والإملائية.

- ثالثا: معظمُ الأعمالِ كان يُتقرَّبُ بها إلى الحُكَّام وأولياء الأمور كما هو الحال بالنسبة للدُّرة المَصُونة، والتُّحفَةُ المَرْضيةُ، وعجائبُ الأسفارِ، والثُغر الجماني ...وغيرها مِن الكتابات، وهو نفس حال صاحب مخطوط "الزهرة النائرة" فالكتاب كتب مِن أجل محمَّد باي الكبير وقُدِّم له في النِّهاية، ويَظهر هذا الأمر بوضوح في قول صاحب المخطوط: «... وذلك عن إذن الأمير بأمر الله، القائم بحق الله المتوكل على الله، المجاهد في سبيل الله، الفاضل الأكمل الزكي الأعدل، سيدي محمَّد باي الكبير...»[3] وغالب حُكَّام الجزائر في العهد العثماني مِن

(1)- عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم أو الولاية، ص15.

(2) - انظر: الزهرة النائرة، ص 157.

(3) - نفسه: ص 158.

الأتراك أو مِن العلوج الذين لم يكونوا مِن المُتضلِّعين في النحو والأدب والصَّرف وغيرها مِن الأمور اللغوية، ما ساهم في تدهور الكتابات والحياة العلمية عموما.

- رابعا: أنّ نظام الحكم في العهد العثماني كان يقوم على الجهاد البحري والفتوحات البرية، فكان أشبه ما يكون بالنظام العسكري الذي لم يعط للحياة العلمية حقها من الرعاية ما عدا في عهد محمد باي الكبير، ما ساهم في انحطاط المستوى اللغوي.

- خامسا: أنّ صاحب "مخطوط الزهرة النائرة" كان يستهدف حسب تصريحه زيادة حماس فئة معينة من أهل الجزائر وهم الجنود والمرابطين(1)، والذين غالباً ما كانوا أيضاً من العلوج والأتراك والجُندِ الإنكشاري من ذوي المستوى اللغويِّ البسيطِ جِداً.

بالإضافة إلى ما مَرّ مِن أسباب فهناك أخطاء النُّسّاخ التي أشرنا إليها في مستهل الموضوع والذين كانوا غالباً لا يفقهون مِن اللغة الى النَّزْرَ القَليل، والتّسرعُ في التأليف مِن طرف أصحاب الكتابات إرضاء لرغبات جهات معينة، والتَّصحيف الذي ينال من بعض الكلمات، وغيرها مِن الأمور.

نخلص في النهاية أنَّ الأسلوب اللُغوي في مخطوط "الزهرة النائرة" بسيطٌ جِداً ولا يخلو مِن الأخطاء النَّحوية والصَّرفية، التي سنشير إلى

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 158.

كلٌ منها في مكانها في متن المخطوط، وهو يَعْكِس المستوى الثقافي والاجتماعي للجزائر خلال العهد العثماني، وهذا النمط مِن الأسلوب (أدبي ونحوي) تشترك فيه غالبية المصادر التاريخية في العهد العثماني في الجزائر.

4 -المصادر والمراجع المعتمدة في الكتاب:

يعدُّ التَّطرق لهذا المبحث مِن الصُّعوبة بما كان، وترجع هذه الصُّعوبة أساسا إلى عدم تصريح صاحب المخطوط "محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمان بن رقية" بالمصادر التي نقل منها معلوماته، فنجده يقتصر على ذكر كتاب واحد أشار إليه حين تكلَّم عن السَّبب الذي حمله على تصنيف كتابه "الزَّهرة النائرة"، هذا ما يجبرنا على إعمال الاستقراء في الأول، وهو ما مكننا من تقسيم المصادر التي اعتمدها صاحب المخطوط إلى قسمين أساسيين: أولهما المصادر الكتابية، وثانيهما المصادر السَّماعية والعينية.

أ. المصادر الكتابية: ويمكننا تقسيم هذه المصادر بدورها إلى فرعين: أساسية وثانوية.

أ.1 المصادر الكتابية الأساسية: اعتمد صاحب المخطوط من الجزء المتعلق بقدوم الأتراك إلى الجزائر الى غاية الواقعة الثالثة على كتاب "غزوات خير الدين وعروج" المجهول مؤلفه والذي قام "نور الدين عبد القادر" سنة 1353هـ/ 1934م بتصحيح متنه والتَّعليق على حواشيه وطبعه في المطبعة الثعالبية في الجزائر في نفس السنة، وكتاب "غزوات

خير الدين و عروج" أشبه ما يكون إلى كُتب السّير فهو يتناول سيرة الرّجلين وأول ما يبتدئ به صاحب الكتاب، الكلام عن الموطن الأصلي لكل من خيرالدين وعروج. ثمَّ ينتقل الى التَّحدث عن غزوات الرجلين البحرية وكيفية التحاقهما بالجزائر. بدايةً باسترجاع جيجل وبجاية من النصارى إلى استنجاد أهالي الجزائر بالأخوين، لتخليصهم من سطوة النصارى[1]، وكتاب الغزوات الماضي ذكره كُتب باللغة التركية وترجم منها إلى العربية بطلب من مفتي الحنفية في الجزائر "محمَّد بن علي القلغي"[2]، كما استعان صاحب المخطوط في كتابه بوثيقة المحكمة الملحقة بكتاب "غزوات خير الدين وعروج" وهو الأمر الذي ذكره الأستاذ "ناصرالدين سعيدوني" في كتابه "من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي"[3]، ويذكر صاحب المخطوط اعتماده على بعض الوثائق والكتابات الأجنبية والتي كثيرا ما يعبر عنها بقوله غزواتهم أو مكاتبهم فيقول على سبيل المثال: « ... ورأينا مكتوبا في كتبهم اعتذارا منهم كيف تقاتلون أناسا في هذه الشجاعة...»[4] وقوله في موضع آخر: « ... وأنا العبد الحقير رأيت في مكتوب جاء من قرط خانة بعد وصول الملاعين إلى بلادهم، أن الملاعين أخرجوا من

(1) – مجهول: غزوات خير الدين وعروج، تعليق نور الدين عبد القادر، د–ط، الجزائر، المطبعة الثعالبية والأدبية، 1934، ص27.

(2) – نفسه: ص 128.

(3) – ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي لبلاد الغرب الإسلامي، ص 426.

(4) – انظر: الزهرة النائرة، ص150.

أسبيطال متاع قرطخانة ألفين وثلاثمائة من المجاريح ...»[1]، وقوله **أيضا**: «....ثمَّ بعد مدَّة شاهدنا في غزواتهم أنَّ عددَ مَن ضاع منهم مِن **المقتولين** في المعركة، ومَن ماتَ مِن المرضى والمجروحين أربعةَ عشَر **ألفًا** ...»[2]، ويبقى الإشكال في هذا أنَّ صاحب المخطوط لم يصرِّح **كيف** حصل على الوثائق الخاصة بالطَّرف الآخر؟ وكيف استفاد مِن **المعلومات** التي أتى بها؟ وهل استفادته مِن الوثائق والكتابات الأجنبية **دليلٌ** على إتقانه للغة الفرنك (Franques) كما كانت تعرف آنذاك، **خاصة** وأنَّه ذكر محادثته مع رجال أحد المراكب الإسبانية وقوله: «... **وقلت** لهم أنّي كُنت بالجزائر فجاء الخبر إلى الجزائر بأنَّ عمارة **الإسبنيول** جائية إليها ...»[3]، وقد استغرب برنيي في ترجمته لنصِّ **الحملة** ذلك، وتساءَلَ المُراجع للترجمة عن سبب عدم الإفصاح عن **كيفية** الحصول على هذه الوثائق؟ وعدم تصريح صاحب المخطوط عن **كيفية** وصولها إليه؟ وغيرها من الأمور ونص كلامه:

«.... L'autre indigène de cette narration ne déclarait pas qu'il a consulté des documentes espagnols comme il le fait ici qu'on s'en serait aperçu dans plusieurs passage…»[4]

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 152 .

(2) – نفسه: ص 153.

(3) – نفسه: ص 139.

(4) -Brisner : Op.cit P340. R-A.

أ.2 المصادر الكتابية الثانوية: بالإضافة إلى اعتماد صاحب المخطوط على كتاب "غزوات خير الدين وعروج" وملحق المحكمة وبعض الكتابات والتقييدات التي قال عنها صاحب المخطوط أنها تخص الجانب الغربي (النصارى)، توجد بعض المصادر الثانوية التي استأنس بها صاحب المخطوط، فرجع في تعريفه للفُواق والرِباط الى كتاب لسان العرب لابن منظور الأفريقي والذي يعدُّ مِن أمهات الكتب المُعجمية العربية. واستعان صاحب المخطوط بكتاب ليوسف بن عمر الصوفي وهو كتاب السّير، لم يشتهر هذا الكتاب في الغالب وهو ما جعل صاحب المخطوط يشير إلى "يوسف بن عمر الصوفي" المعروف بـ "نبيرة شيخ عمر البزار" بكتابه الآخر المشهور عند الأحناف وهو كتاب "جامع المضمرات" الذي شرح فيه يوسف بن عمر الصوفي "متن القدوري" في الفقه الحنفي[1].

ب.المصادر السماعية: صرَّح صاحب المخطوط في العديد مِن المرات بنقله عن المصادر الشفوية فيذكر في بداية المخطوط عدد الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر حسب ما أخبر مشافهة فيقول: «...إذ ورد علينا نقلا متواتراً بعد مجيئ الترك إلى الجزائر أنَّ جنود الكفرة الفجرة أغارت على الجزائر سبع أو ثماني مرات، والحمد لله بعون من الله سبحانه ونصر منه رجعوا في كل مرة في أحقر وأدمر ما يكون...»[2] كما نقل

(1) – حاجي خليفة: كشف الظنون، د–ط، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1992، ج2، ص1631.

(2) – انظر: الزهرة النائرة، ص 83.

صاحب المخطوط العديد مِن الأخبار عن النَّصارى على لسان حالهم مِن خلال الأسرى الذين وقعوا في أيدي الجزائر فمن ذلك قوله: «... والملاعين يقولون أنَّ رصاصكم مسمومٌ لأنَّ المجاريح كلهم ماتوا حتى المائة لم يبر واحد...»[1]، وقوله أيضا: «...حتَّى سمعنا مِن بعض النَّصارى الذين كانوا معهم في البر ثمَّ أُسِرُوا بأيدينا أنَّ الصَّندل مملوءاً بالمجاريح كان يمشي إلى سفينة مِن سفائنهم ليفرغ المجاريح فيقول أهل السَّفينة بعدونا ... »[2].

وبالإضافة للمصادر الكتابية والسماعية توجد المشاهدة العينية لصاحب المخطوط، فمعظم الواقعة التاسعة سردها صاحب المخطوط مِن ذاكرته؛ لأنَّه كان ممَّن شارك في صدها وممَّا يدلُّ على ذلك قوله: «...وجعلت سبب دخولي إياها أخذ الماء، وقلت لهم أني كنت بالجزائر...» وقوله في موضع آخر من نفس الواقعة «...أمَّا جماعة اللعين التي كانت معه دخل البعض منهم إلى الجنَّة، فمع دخولهم قتل البعض منهم...»[3] والمشاهدة العينية لصاحب المخطوط للواقعة التاسعة هي مِن الأسباب التي حملته على وضع "الزهرة النائرة"، وهو الأمر الذي زاد في أهمية المخطوط وجعل الاعتماد على معلومات الزهرة النائرة أمر أساسيا لا غنى عنه.

(1) – انظر: الزهرة النائرة، ص 152..

(2) – نفسه: ص 152.

(3) – نفسه: ص 151.

الفصل الثالث:

التعريف بالنسخ المخطوطة والمنهج المتبع في التحقيق

1-التعريف بالنسخ المخطوطة:

اعتمدنا في تحقيق نصّ المخطوط على أربعِ نسخٍ، جعلنا اثنتان منها أساسية في عملية المقارنة، واثنتان فرعية عُدنا إليهما بالخصوص عند وجود أي خلافٍ بين النُّسختين الأساسيتين.

النسخة الأولى التي جعلناها النَّسخة الأصل الذي بُنيت عليه عملية ضبط النَّص وهي النُّسخة الموجودة حاليًا بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم (2603)، غالب الظنِّ أنّها تعود للأستاذ "سعدُ الدِّين بن أبي شنب" ولعلّها هي نفسها التي تحدَّث عنها الأستاذ "سليم بابا عمر" عند نشره لنصِّ مخطوط[1] **"الزهرة النائرة"** سنة(1967مـ)، ووقع اختيارنا على هذه النُّسخة لنجعلها النُّسخة الرئيسية لسببين أساسيين:

- أولّهما: أنَّ النُّسخة كانت في حوزة رجلٍ مُهتمٍّ بجمع المخطوط، فهو يتحرَّى حيازة أحسن النُسخ وأوثقها -وهو ما لاحظناه عند مقارنة هذه النُّسخة بغيرها مِن النُّسخ-كما أنّها على الأغلب أقرب ما تكون للشَّكل الذي وضعه صاحب المخطوط[2].

- ثانيهما: أنَّ هذه النُّسخة جاءت كاملةً، حاملةً لاسم المخطوط واسم صاحبه وتاريخ الفراغ مِن تقيده وجميع مادة الكتاب.

---

(1) - انظر مجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآدب، العدد الثالث، يوليو،1967، الجزائر، ص2.

(2)- عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ط الثانية، الإسكندرية، مصر، دار المعارف، 1993، ص64.

تقع هذه النُّسخة في كُراسةٍ مِن أربعٍ وعشرينَ ورقةٍ، كلَّ ورقةٍ مُقسمة إلى صفحتين، أي ما مُجمله ثمانٍ وأربعينَ صفحةٍ مِن الحجم الصغير ويوجد ترقيمٌ بأعلى كلِّ ورقةٍ مِن جهة اليسار بخطِّ النَّاسخ وبقلمٍ أحمرٍ استُعمِل أيضاً في تدوين السَّنوات في متن المخطوط، كما يوجد لكلِّ صفحة رقمٌ خاصٌ بها أُضيف مُؤخّراً على ما يبدو، ولعلّ وضعوه هم عمال المكتبة الوطنية الجزائرية.

يوجد بكلِّ صفحةٍ مِن صفحات المخطوط سبعةَ عشرَ سطراً، ما عدا الصَّفحة الأولى التي بها اثنا عشر سطراً، والصَّفحة الثانية بها ستَّةَ عشرَ سَطْراً.

ونصُّ هذه النَّسخةِ مِن المخطوط كُتبت بخطٍ مَغاربيٍ رديء إلاَّ أنّه مقروءٌ، وهو مُدونٌ بقلمٍ أسودٍ، وبعض الرّموز واشارات الوقف والسنوات دُوِنت بقلم أحمر، كما أُلحق بنصِّ هذه النَّسخة العديدُ مِن الإضافات والتَّعليقات على الحواشي بقلمِ رصاصٍ بخطٍّ نسخيٍّ جميلٍ، كما يوجد بنفس هذا الخط والقلم تحويلٌ للسّنواتِ مِن التَّأريخ الهجري المعمول به في المتن إلى التَّأريخ الميلادي.

مُعظم رَسم النَّاسخ في متن المخطوط مشابه لِمَا هو معمولٌ به في المُصحف الشريف، ومن الأمثلة على ذلك كلمة (رأى) إذ كثيراً ما تُرسم في المخطوط بهذا الشّكل (رءا)، وحذف حرف المدِّ مِن وسط بعض الكلمات فعلى سبيل المثال حُذِفَ الألف في كتابته لكلمة (الكافرين)

فيرسمها بهذا الشَّكل (كفرين)، وحذف ألف المَدِّ مِن(أَيُّها) فيرسمها بهذا الشَّكل «أَيُّهَ»[1]، وإهمال رَسم معظم حروف الهمز كما هي الرواية القرآنية عند أهل المغرب مِنطريق "أبي يعقوب الأزرق"

يبدأ المخطوط بقول صاحبه: «بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم، الحمد لله الذي وعد المومنين بالغلبة والنُصْرَةِ، وجزى المشركين بالخذلان والدَّبَرة....»[2].

وينتهي بقول صاحب المخطوط: «... كان الفراغ منه ضحوة يوم الخميس في شهر الله المعظم جمادى الثانية بعدما خلت منه إحدى عشر يومـًا، سنةَ أربعٍ وتسعين بعد المائة والألف. صلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمـًا، والحمد لله ربِّ العالمين.»[3].

وقد رمزنا لهذا المخطوط بالحرف (أ).

أمّا النُّسخةُ الثانية مِن المخطوط والتي جعلنها كأصلٍ ثانٍ للمقارنة فهي النُّسخة الموجودة بالمكتبة الوطنية تحت رقم (1626)، وتقع بدورها في كراسةٍ مِن عشرةِ أوراقٍ من الحجم المتوسط كُتِب على ظِهر الصفحة

(1) – وردت بهذا الشكل في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعـًا ايُّهَ اَلْمُومِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور الآية 31، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ الزخرف الآية 49، وقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمُ أَيُّهَ الثقلان﴾ الرحمن الآية 31.

(2)– انظر المخطوط (أ) ص1.

(3)– انظر المخطوط (أ)ص47.

الأولى باللغة الفرنسية ما معناه أنّ الكراسة تحتوي على 16 ورقةٍ، وكتب أيضاً زمن نقلها وتاريخ الانتهاء مِن تدوين المخطوط وكُتب أن ذلك كان في يوم 11جمادى الثانية، سنة 1194.

يُوجد بكلّ صفحة من المخطوط تسعةَ عشر سطراً، في كل سطرٍ ما بين 18 –22 كلمة، أمّا في الصَّفحة الأولى فيُوجد ستةَ عشر سطراً.

كُتب نصُّ هذا المخطوط بخط مغاربيٍّ جميلٍ أقرب ما يكون إلى الخط الأندلسيِّ، وهذا مِن خلال تداخل حروفه وزخرفتها، وخطُّ هذه النُّسخة جِدُّ جميلٍ، ومقروء – لمن تعود قراءة هذه الخطوط–، كما يتميزُ هذا المخطوطُ بدقَّتِه المتناهية، وغالب الظنِّ أنّ هذه النُّسخة هي أعتق النُسخ إذ أنّ النَّاسخ نقلها في نفس السَّنة التي كتب فيه المخطوط، وهي التي اعتمدها **"ألفونس روسو"** في ترجمته للمخطوط، وهو الذي قدَّمها للمكتبة الوطنية الجزائرية إبَّان الاحتلال الفرنسي للجزائر كما ذُكِرَ ذلك في المجلة الأفريقية[1]، والسّببُ في عدم جعلها في المقام الأوّل وعدم جعلها الأصل في عملية التَّحقيق هو وجود انقطاع في نص المخطوط يبدأ مِن قول صاحب المخطوط في الواقعة الثالثة: «..فأرسى بجون (......) يوم الخميس..» وينتهي هذا الشرخ في الواقعة التَّاسعة عند قول صاحب المخطوط: «وكذلك المهاريز تاع البومبا كانت كلّها مهيأة ...»[2].

(1) – BRESNIR.J: Récit indigène de l'expédition D'O'REILLY، Op.cit، p334.
(2) – المخطوط (ب) ص 9.

يبدأ نصّ المخطوط في هذه النَّسخة بقول صاحبه: «بسم الله الرحمان الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله، الحمد لله الذي وعد الموحدين بالغلبة والنُّصرة، وجزى المشركين بالخذلان والدَّبرة...»[1] وينتهي بقول صاحب المخطوط: «وكان الفراغ منه ضحوة يوم الخميس في شهر الله المعظم جمادى الثانية بعدما خلت منه إحدى عشر يوماً، سنة أربع وتسعينَ بعدَ المائة والألف، وصلى الله وسلَّم على سيدنا ومولانا محمَّد وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العلمين.»[2].

وقد رمزنا لهذه النسخة من المخطوط بالحرف (ب)

أمّا النَّسخة الثالثة التي اعتمدناها في المقارنة وجعلناها فرعا أوّلاً وكثيراً ما استأنسنا بها، فهي نسخة النَّص الذي نشره الأستاذ "سليم بابا عمر"، خاصة في الجزء الذي انقطع مِن المخطوط (ب)؛ وذلك لأنَّ الأستاذ "سليم بابا عمر" قام بنشر المخطوط مُستعيناً بنص المخطوط كاملاً، وما ذهبنا إليه هنا ليس بِدْعاً منّا، وإنّما هو المذهب الذي أختاره الأستاذ "عبد السلام هارون" في كتابه "*تحقيق النُّصوص*" ونشرها، وقوله: «... والنُّسخ المطبوعة التي فقدت أصولها أو تعذر الوصول إليها يهدرها كثيرٌ مِن المُحقِّقين، على حين يعدها البعض أصولا ثانوية في التَّحقيق وحجَّتهُم في ذلك أن ما يُؤدَى بالمطبعة هو عين ما يؤدى بالقلم، ولا يَعدُو الطَّبعُ أن يكون انتساخا بصورة حديثة، وإنِّي لأذهب إلى هذا

(1)- المخطوط (ب) ص1.
(2)- المخطوط (ب) ص16.

الرأي مع تحفظ شديد، وهو أنْ يتحقَّق الاطمئنان إلى ناشر المطبوعة والثِّقة به...»[1]. وقد قابلنا تعليقات وإشارات الأستاذ "سليم بابا عمر" بما هو موجود في الجزء الذي بين أيدينا مِن المخطوط فوجدنا جُلَّها صحيحٌ وهو ما زاد في اطمئناننا.

وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز (س) باسم الحرف الأول مِن اسم النَّاشر.

بالإضافة إلى النُسخ السّالفة الذِّكر فقد اعتمدنا بشكل جزئيٍّ على نص النُّسخة التي نشرها ألفونس روسو (*Alphonse Rousseau*) سنة 1841 في الجزائر، وقد قام بعنونة النَّص الذي ترجمه باسم (حوليات ايالة الجزائر) وهي بالفرنسية (*chroniques de la Régence d'Alger*) والسّبب في عدم جعل هذه النُّسخة أصلاً مِن الأصول هو اعتماد المترجم على المخطوط (ب) والذي اعتمده بدوره الأستاذ "سليم بابا عمر"، وقد أخرج نصَّ المخطوط في 199 صفحة، متبوعة بـ 20 صفحة على شكل ملحق، وجعل المترجم مِن كلِّ واقعةٍ فصلاً في حدِّ ذاته، كما لم يخلُ الكتاب مِن تعليقات المترجم[2].

رمزنا لهذه النسخة بالحرف (ر) للدلالة على اسم صاحبها "روسو".

(1) – عبد السلام هارون: تحقيق النصوص ونشرها، ط الخامسة، القاهرة، مصر، مكتبة السنة، 1994، ص31.

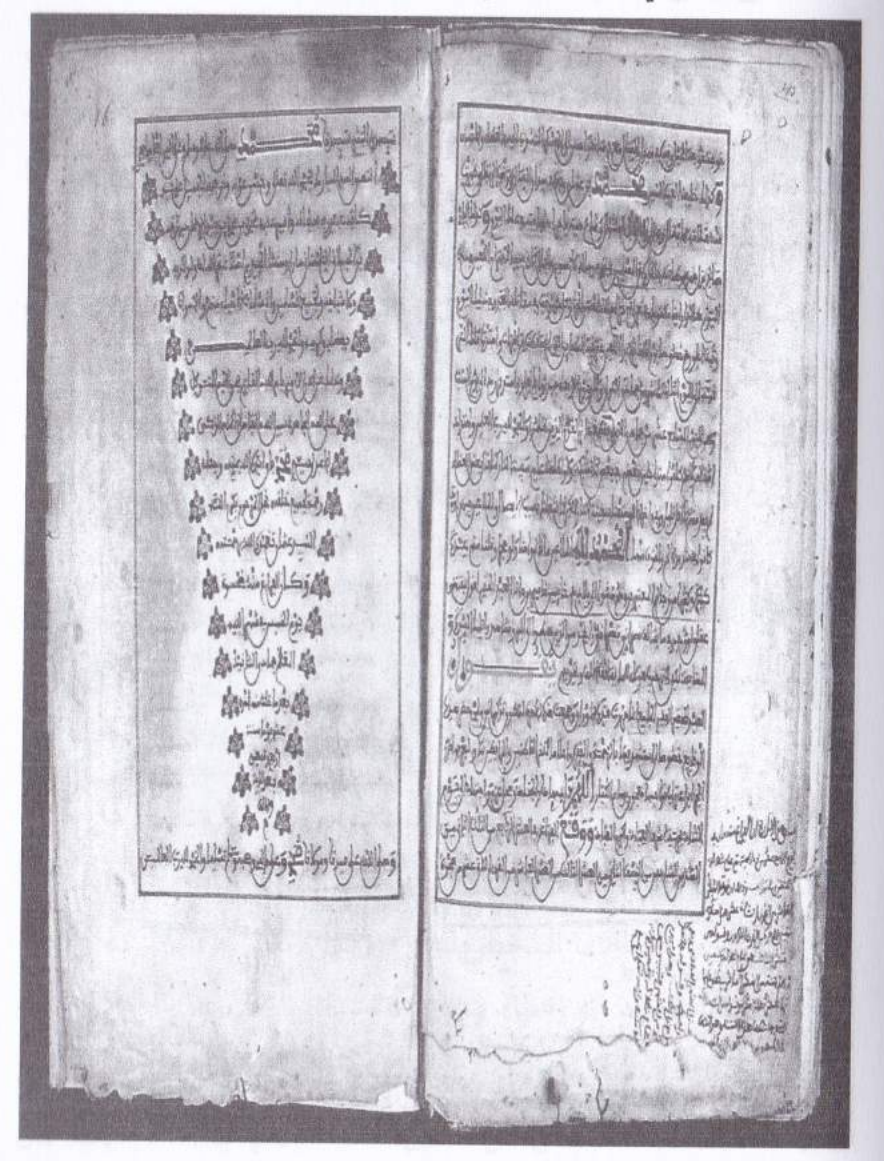
(2) -Alphonse Rousseau : Op. Cit. P, P 37, 38,41.

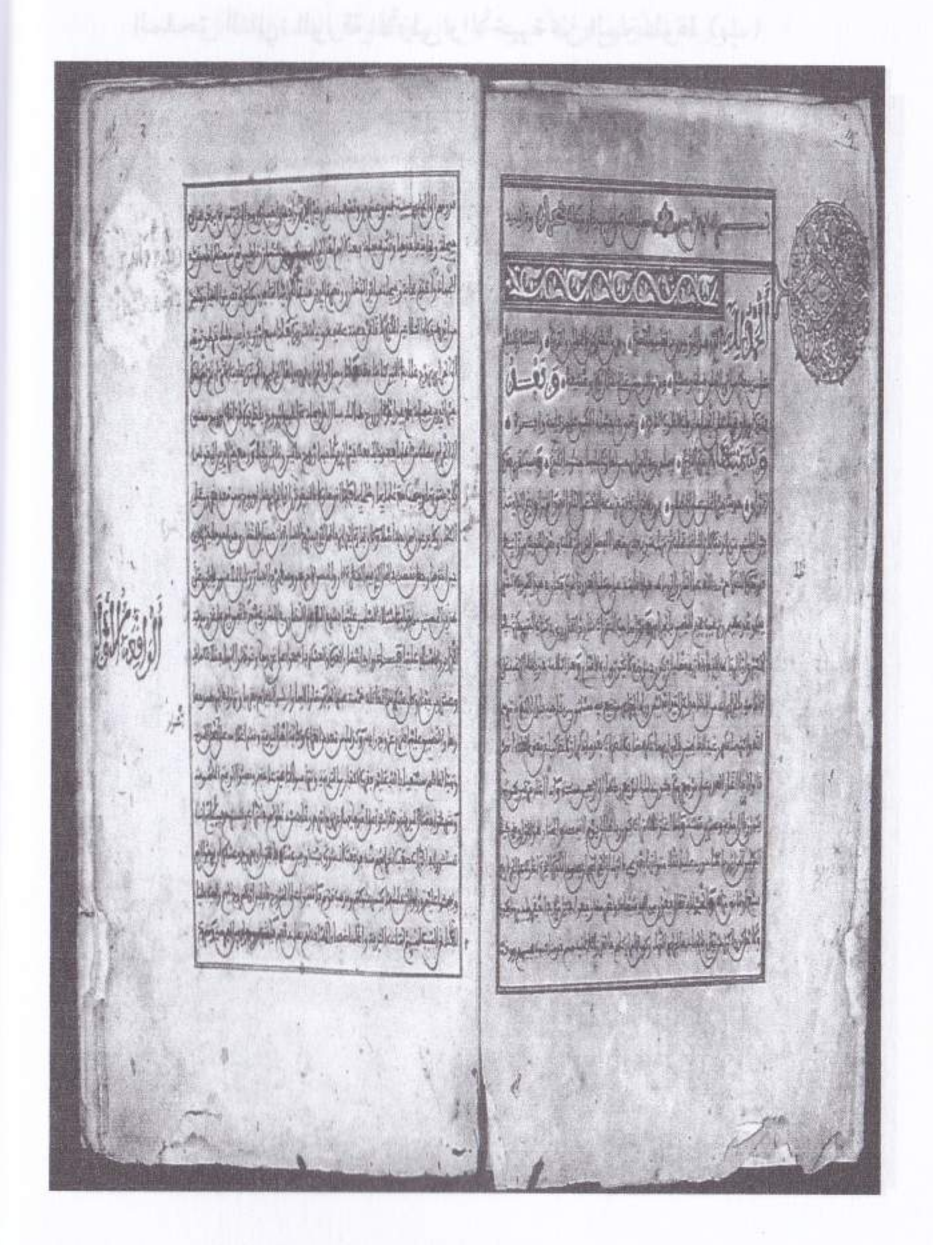
كما يوجد للمخطوط نسخة ثانية ترجمة الواقعة التاسعة وهي حملة أوريلي (*O'Reilly*) على عهد عثمان باشا سنة (1189هـ/ 1775مـ) وقد نشرت في المجلة الأفريقية سنة (1864مـ) تحت عنوان (*Récit indigène de l'expédition D'O'REILLY*) نشرها برنيي (*Bresnir*) إلاَّ أننا لم نعد إليها إلاَّ في القليل مِن الحالات وبالأخص لمقارنة مضمونها مع ما جاء في النُّسخة (ر) ونبّهنا على ذلك في كل موضعٍ على حدى.

الورقة الأولى والأخيرة من المخطوط النسخة (أ)



الملحق الثاني: الورقة الأولى والأخيرة من المخطوط (ب)





2- المنهج المتبع في التحقيق:

لأجل بلوغ المراد مِن هذا العمل وإخراجه وفق تصور علمي يَعتمد في أساسه على الروح التي خلفها أساتذة التَّحقيق في عالمنا العربي الإسلامي، حاولت أن أضع للمخطوط خطَّة يخرج بها كما أراده له صاحبه، لهذا سيجد المُطَّلِع على هذا الكتاب أنَّه مُقسّمٌ إلى: دراسةٍ، ومتنٍ.

فُصِّلتِ الدِّراسةُ إلى ثلاثة فصول: أوّلها خُصِّص للكلام عن صاحب المخطوط، ثمّ عصره مِن نواحي عِدَّة، وهو مدرج تحت مُسمّى **(التعريف بصاحب المخطوط وعصره)**، ثانيهما خصصته للتَّحدُّث عن المخطوط ما له وما عليه، وهو تحت عنوان **(التعريف بالكتاب)** أما الفصل الثالث فهو عبارة عن تتبع لنسخ المخطوط والمنهج المتبع في تحقيق المخطوط وإخراجه إلى النور وهو تحت مسمى **(التعريف بالنسخ المخطوطة ومنهج التحقيق)**.

حاولت في الفصل الأول من الدراسة جاهداً أن أُلِمَّ بكلّ ما قد يهم مُتصفِّح هذا الكتاب فعملت على ضبط اسم صاحب المخطوط من خلال كتب التراجم ونسخ المخطوط، كما اجتهدت في حصر أمور رأيت أنها مهمة في عصر صاحب المخطوط، وحاولت جاهداً ألاّ أُطنب في هذا المبحث لأنَّ المراد منه إعطاء صورة مقتضبة لما كان سائداً خلال تلك الفترة من العهد العثماني في الجزائر (1518هـ-1775م) أمّا الفصل الثاني مِن الدِّراسة فقد أجبت فيه عن كلّ ما مِن شأنه أنه يأتي في بال القارئ قبيل

وصوله إلى متن المخطوط. فتحدَّثت عن مضمون المخطوط فأهميته، كما تكلمت عن المنهج والأسلوب اللّغوي الذين اعتمدهما صاحبه، وأهم المصادر والمراجع التي استأنس عند تصنيفه. وخصصت آخر فصل في الدراسة للحديث عن النسخ التي وقفت عليها في التحقيق والعمل الذي قمت به ضِمنه.

بعد الفراغ مِن الدِّراسة يأتي متن المخطوط وهو القسم الثاني مِن هذا العمل، خصَّصته لإخراج متن المخطوط، وسعينا جاهدا أن يكون كما وضعه صاحبه أول مرّةٍ، مع تحقيق جزئياته ومقارنة النُّسخ المختلفة التي يسر الله الحصول عليها، وقد حفظت في هذا الجزء مِن البحث على العناوين التي وضعه صاحب المخطوط في حدِّ ذاته، وجاء عنوان الفصل باسم المخطوط (**الزَّهرَةُ النَّائِرَةُ فيما جَرى في الجزائرِ حينَ أغارتْ عليها جنودُ الكَفَرةِ**) قمت في هذا الفصل بنقل بعض العناوين الجانبية التي وضعها الأستاذ (سليم بابا عمر) لأصل المخطوط بغرض تَّسهيل الوصول لموضوع ما للمتخصِّصين دونما كبير مشقَّةٍ من جهة، ومِن جهة ثانية لرفع اللُبس عن المخطوط.

وتطلَّب وضع المخطوط في الشَّكل المُتكلَّم عنه سابقـًا الاستعانة بعدد مِن المناهج، على رأسها المنهج التَّحليلي وبالأخصّ في الدِّراسة، وذلك مِن أجل الإجابة عن التَّساؤلات التي تعترض عملية التَّحقيق، كما اعتمدنا في بعض المباحث على منهج المقارن خاصة في الجزء المتعلق بترجمة صاحب المخطوط، والفصل الأخير المتعلّق بعرض المخطوط كاملاً،

وذلك لأجل توضيح مواطن التَّداخل وبواطن الاختلاف بين مخطوط "الزهرة النائرة" وغيره مِن المصادر التي تناولت نفس الفترة أو جزء منها، وبالإضافة لذلك اعتمدت المنهج الوصفي في المبحث الخاص بوصف نسخ المخطوط التي بين أيدينا.

ومن أجل إخراج المخطوط وفق التَّصور المذكور آنفـًا استعنت بعدد مِن المصادر المحلية والأجنبية التي عالجت فترة العهد العثماني في الجزائر، مِن أهمها المصادر المعتمدة كتاب "***غزوات خير الدين وعروج***" لمؤلف مجهول[1]؛ وذلك لاستعانة صاحب المخطوط واعتماده الكبير على هذا الكتاب في سرد الفترة الأولى الممتدة مِن استنجاد أهل السَّواحل الشرقية للجزائر بالإخوة بربروس وإلى غاية حملة الملك الإسباني "شارل كان" على مدينة الجزائر سنة (1541م)، بالإضافة إلى هذا الكتاب اعتمدنا أيضـًا على "***مذكرات خير الدين بربروس***" التي قام بترجمتها الأستاذ محمد درَّاج فكانت خير معين لنا على تحديد المواقف المختلفة للإخوة بربروس من الصراع مع المملكة النَّصرانية الاسبانية، بالإضافة إلى بعض المصادر الثانوية ككتاب "**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**" لابن سحنون الراشدي وكتاب "**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**" لأبي راس

(1) – في الحقيقة الكتاب باللغة العثمانية والتركية الحديثة ينسب لسيد مراد جلبي وعنوانه بالتركية "Kaptan Paşa'nın seyir Defteri Gazavat-I Hayreddin Paşa" يتكلم يلماز أوزاتونا عن وجود العديد من النسخ الأصلية المخطوط لكتاب منها أربعة على الأقل في مكتبة جامعة إسطنبول، ترجم الكتاب أولا من العثمانية إلى العربية ثم ترجم إلى الفرنسية مرتين والمجرية والاسبانية ومنها إلى الإيطالية.

الناصر، و"**طلوع سعد السعود**" لأغا بن عوده المزاري، إضافة إلى بعض الكتب الأجنبية التي تناولت الوجود العثماني التركي في الجزائر ككتاب "**الجزائر تحت السيطرة التركية**" لديقرامونت

De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)

حيث حلَّل العديد مِن الأحداث الجارية في الجزائر العثمانية لكن بنوعٍ مِن ترجيح الكفة للتفسيرات الأوروبية لأيَّة هزيمة، كما يوجد أيضا كتابٌ جون ب وولف تحت عنوان "**الجزائر وأوروبا** (1515–)" وهو يلقي الضوء على العلاقة الأور جزائرية في تلك الفترة، كما يُرجع جميع الهزائم الأوروبية إلى الخوارق الطبيعية ويغضُّ الطَّرف عن بطولات أهل البلاد، كما اعتمدنا على كتاب هام تناول الوجود العثماني في الجزائر بجزئياته وحيثياته المختلفة، وهو كتاب "**الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**" لإلترا سامح عزيز، كما رجعنا في شرح بعض المصطلحات المستعصية على الفهم أو الغريبة إلى كتاب "معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لكتاب "مصطفى بن عبد الكريم الخطيب" وهو كتاب قيِّم جداً في هذا المجال.

في الأخير لابد أن أعيد التنويه بشكر كل الأساتذة والزملاء والأفاضل الذين ساعدوني على إخراج هذا العمل إلى النور، ورزقني الله وإياهم أجره إلى يوم النشور.

ثانيا: قسم التحقيق

الفصل الرابع:

"الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الحمد لله الذي وعد المُؤمنين[1] بالغلبةِ والنُّصرةِ، وجزى المُشركينَ بِالخِذْلان والدَّبرة[2]، والصّلاة والسّلام على مَن بُعث مِن أكرمِ الخلقِ قبيلةً وعشيرةً، وحرَّض المُؤمنينَ على القتالِ بُكرةً وعَشِيّةً.

وبعدُ فهذه أوراقٌ تُحرِّك على الجهاد أربابَ القلوبِ النّافرةِ، وتنمّي في اجتهاد المُنكبى[3] عليه زيادةً وافرةً، وسمّيتها بـ **"الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"** وسببُ تحرير هذه الأوراق حديث خير الخلق على الإطلاق: «مَن رابط فُوَاقَ نَاقَةٍ حَرَّمَهُ اللهُ على النّارِ»[4]. والفُوَاق بضمِّ الفاء، ما بين الحَلبتين مِن الوقت، تُحلب ثمّ تُترك سُويعةً يرضَعُها الفصيلُ[5] لِتَدُرَّ ثم تُحْلبَ. ومعنى

---

(1) – في (ب) و (ج) الموحدين.

(2) – هي الهزيمة في القتال. انظر: مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ضبط يوسف الشيخ، د–ط، بيروت، لبنان، دار الفكر، 2005، مادة (د ب ر).

(3) – في (ب) المُكبّى، والصحيح المُنكبِّ عليه أي المقبل عليه، تقول العرب أَكبَّ على الشيء أي أقبل عليه ولزِمَه. انظر: ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، ط الأولى، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، 2005، مادة (ك ب ب).

(4) – حديث ضعيف. انظر: محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزياداته، أشرف على طبعه زهير شاوش، ط الثالثة، المكتب الإسلامي، 1990، حديث رقم 5593.
– محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، ط الثانية، الرياض، السعودية، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2000، حديث رقم 626.

(5) – هو ولد الناقة إذا فُصِل عن أمه. انظر: الفيروز آبادي: نفسه، مادة (ف ص ل).

الحديث: مَن رابط قدر هذه المدّة حرّمه الله على النّار، والرِّبَاط هو الإقَامةُ على جهاد العدوِّ بالحرب، فكان في هذا الحديث الشَّريف فيه وعدٌ عظيمٌ وترغيبٌ فخيمٌ للمُقيمينَ بالجزائر.

وقولُ صاحب المضمراتِ[1] شَارح القُدُوري في كتاب السّير: «ذُكر في الكُبرى أنَّ الرِّبَاط الذي جاء الأثرُ في فضله أن يكون في موضعٍ لا يكون وراءه الإسلام»، وهذا كلامه في زيادة الرَّغبة على الإقامة بالجزائر[2]، إذْ مِن المُشاهَدِ لكلِّ أحدٍ أنّه ليس وراء الجزائر موضعٌ فيه المسلمون مِن نّاحية بلدان الكفرة دمرهم الله.

وأكثر ما ذُكر رَغْبَةً للقاطنينَ بالجزائر، ما ذَكرهُ صَاحبُ "المُضمراتِ" بَعد مَا ذُكِرَ أوّلاً حاكيًا عن بعض العلماءِ أنّهم قالوا: «إذا أغَار العَدُوُّ على مَوْضِعٍ مَرّةً يكونُ ذلك المَوضِعُ رِباطًا إلى أربعينَ سَنةً، وإذا أغار مرّتَيْنِ

(1) – هو يوسف بن عمر الصوفي المعروف بنبيرة شيخ عمر البزّار توفي سنة (832 / 1429)، وجامع المضمرات كتاب في الفقه الحنفي شرح على متن القدوري للإمام أبي الحسن أحمد بن محمد القدوري البغدادي. انظر:

– حاجي خليفة: كشف الظنون، ج2، ص1631.

(2) – قيل أنَّ أصل التسمية فينيقي وهو ايكسيم (icosim) ويقصد بها (جزيرة النورس) لكثرة هذا الطائر بها، تعد المدينة العصب الأساسي للحركية السياسية والاقتصادية في الجزائر خلال العهد العثماني إذ هي العاصمة ومركز القوة السياسية في البلاد. عن مدينة الجزائر انظر:

– حسن الوزان: وصف أفريقيا، تر محمد حاجي ومحمد الأخضر، ط الثانية، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج1، ص 37–40.

– أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، د–ط، مصر، دار النهضة، 2001، ص 9–18.

يَكونُ رِبَاطًا إلى مائةٍ وعشرينَ سَنةٍ، وإذا أغار ثلاثَ مراتٍ، يَكونُ رباطًا إلى يوم القيامةِ» والمختار هو الأوّل، وعلى كِلاَ القولَيْنِ[1] الجزائِرُ رباطٌ، إذ وَرَد علينا نقلاً متواتراً بعد مجيء التُّركِ إلى الجزائر؛ أنَّ جُنودَ الكفرة الفجرة أغارت على الجزائر سبع أو ثمان[2] مراتٍ، والحمد لله تعالى بعونٍ مِن الله سبحانه ونُصْرَةٍ منه رجعوا في كلِّ مرّةٍ أحقرَ وأدمرَ ما يكون، ولأجلِ كون أكثر مَن يقوم بالجهاد في الجزائر التُّركُ، وكون الأمراء كلّهم في الغزواتِ الآتيةِ منهم قدَّمنا سَبَبَ مَجِيئِهم ووقتَ قُدُومِهم إلى الجزائرِ.

[وقت قدوم الترك الى الجزائر][3]

سنةَ خمْسةٍ وعشرينَ وتَسعمائةٍ قَدِمَ خيرُ الدّين[4] رايسٌ وأخوه عرّوجُ إلى تونسَ ثمّ من تونس إلى جيجلةَ وبجايةَ فأخذهُمَا. وتمكّن بجيجلةَ. فبعث

(1) – أي القول بأنّ الرّباط هو ما كان في موضع لا يكون وراءه الاسلام، والقول الثاني أنّ إغارة العدوّ على موضع مرة واحدة على الأقل تجعل منه رباطا.

(2)– كذا في جميع النسخ، والصَّحيح سبع أو ثمانيَ مراتٍ، إذ لا سبب لحذف الياء من ثمانيَ.

(3) – ما بين المعقوفتين زيادة منا.

(4) – اسمه خضر واشتهر باسم خير الدين وكُنّي باسم بربروسا باللاتينية ويقصد بها صاحب اللّحية الحمراء، ولد في جزيرة ميدلي Middlli سنة (888هـ/ 1483مـ) والده هو يعقوب بن يوسف كان من فرسان السباهية Sipahi وهم الذين فتحوا جزيرة مدلي على عهد السُّلطان محمّد الفاتح ، يرجع الفضل إلى خيرالدين بربروسا في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، لذا عُيِّن من طرف السلطان سليم خان أمير أمراء الجزائر، وفي سنة (1534) استدعاه السُّلطانَ سليمان القانوني ليشغل منصب قبطان داريا (قائد الأساطيل البحرية العثمانية)، فحاز فضل تطوير الأسطول البحري العثماني، توفي سنة (953/ 1546) عن عمر يناهز 63 سنة، دُفن في مدينة بشكطاش على ضفة البوسفور.

إليهم أهلُ الجزائرِ يَشْكون مِن النَّصارى قائِلين لهم[1]: «سَمِعْنا بكم أُناسٌ تحبُّونَ الجهادَ، وأخذتُّم بِجايةَ وجيجلةَ مِن أيْدي النَّصارى ونَصرْتمُ الدّين؛ فَهنيئاً لكم أيُّها المُجاهدونَ، لابُدَّ أنْ تقْدُمُوا إلينا، وتُخلِّصُونَا مِن أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة؛ لأنَّنَا في مِحْنةٍ عظيمةٍ وذِلّةٍ شديدةٍ.» فلمَّا سَمِع عروجُ[2] رايسٍ ذلك تحرَّك وتوجَّه إلى الجزائرِ بِزَوْجِ غَلائِط[3] اللتيْن كانتا معه، فلمَّا

(1) – المقصود بالكلام هنا عروج.

(2) – ثاني الإخوة بربوسا اسمه بالتركية (öruc) أوروج، ويقصد به الصيام أو الصائم ينطق عرُوج (*Aruch-Ouroudj*) كان موالعا بركوب البحر، اقتنى سفينة واشتغل بالتجارة، وقع في أسر فرسان يوحنا وبعد الاشتباك معهم قُتل أخاه إلياس وأُسر هو ومَن معه، بقي في الأسر إلى أن فرّ مِنه، وحوّل نشاطه إلى الجهاد فاشتهر أمره واستدعاه بعد ذلك سلطان مصر معينا إيّاه قائدا للأسطول البحري. شاع أمر جهاده البحري فاستنجد به سكان جيجل الجزائريين لتخليصهم من الجَنويين والأسبان فأجاب طلبهم، قضى معظم حياته في الجهاد برا وبحرا إلى أن استشهد في الحصار الإسباني لقلعة بني راشد سنة (924 / 1518) وكان عمره آنذاك خمسةً وأربعين سنة. عن الإخوة بربروس انظر:
– مذكرات خيرالدين بربروس: ترجمة محمد درّاج، ط الأولى، الجزائر، دار الأصالة للنشر والتوزيع، 2010، ص 64– 68.
– محمد يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ص178.
– يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تر عدنان محمود سليمان، ط الأولى، اسطنبول، تركيا، مؤسسة فيصل للنشر والتمويل 1988، ج1، ص 250–252.

(3) – من أنواع المراكب الشراعية التي كانت ضمن القطع البحرية العثمانية يتسع لخمسين راكبا مع أسلحتهم كاملة، تماثل مقدمة هذه السفن مؤخرتها تعرف بالفرنسية بـ Galiotes . انظر:
– مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط الأولى، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1996، ص332.
– سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، د–ط، الرياض، السعودية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000، ص156.

وصل إلى الجَزائرِ فَرِحَ به أهلُهَا وأكرمُوه غايةَ الإكرامِ، ثمّ أتى أخوه خيرُالدّين لجيجلةَ فلم يجد أخاه عروجَ هنالك، فَسَأَلَ أَهْلَ جيجلةَ عن أخيه عرّوج فأجابوه بأنَّ أخاه عرَّوج سعى إلى الجزائر بطلبٍ مِن أهلها. فعند ذلك بَعث خيرُالدّين لأخيه عروجَ مائتَيْن وثمانِينَ رجلاً، ورجع خيرُالدّين إلى تونسَ لِيُشَتِّيَ بها، ويصحب مع علمائِها وصلحائِها، فلمَّا أتى هؤلاء المَبْعوثون إلى الجزائرِ صار عروجُ ومَن معه يغزونَ على الكفَّارِ ولا يدعون لهم راحةً أصلاً.

وكان تِجَاه الجزائرِ في المَحلِّ الذي فيه برجُ الفنارِ الآن حِصْنَانِ للنَّصارى هَدَّم أحدَهُما[1] خيرُالدِّين حين أخذهُما، وجعل نَقْضَهُ في المحل الذي فيه

(1) – المقصود "حصن البنيون" وسُمّي بذلك إمَّا نسبة إلى الصُّخور التي بني عليها، أو أن الكلمة يقصد بها في الاسبانية الصخور العظيمة. بناه الإسبان بين سنتي (1510–1511) يقع هذا الحصن في عرض البحر على مسافة 300 متر من مدينة الجزائر، شكل هذا الحصن تهديداً دائماً لسكان مدينة الجزائر فقام خير الدين بقصف الحصن لمدة تزيد عن عشرين يوما اضطر على إثرها قائد الحصن دون مرتين دي فيرغاس إلى الاستسلام رفقة أكثر من 700 جندي إسباني، اختلف في سنة فتحه بين مَن يرى أن ذلك كان سنة (1529) ومن يرى أن ذلك كان سنة (1530)، قام خير الدين بعد السيطرة على الحصن بتهديمه لكي لا يُبقي للإسبانيين أملاً في استعادته، واستغل الحجارة التي بُني منها الحصن في إنشاء جسر ربط به بين ميناء مدينة الجزائر والجُزر المحيطة بها، ونتيجة لذلك لم يَعُد باستطاعة السفن الأوروبية الدخول لميناء الجزائر دون التعرض للقصف المدفعي، وهذا الجسر لايزال إلى اليوم موجود ويعرف بكاسر الأمواج. عن الحصن انظر:
– مذكرات خيرالدين: المصدر السابق، ص134– 136.
– كورين شوفاليه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص 24– 25.
– عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص51.
-Shuval Tal : La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle population et cadre urbain, Paris, C-N-R-S, P15.

القنطرة الآن، والحصن لآخر هو وسط برج الفنّار، وكان الملاعين يخافون على هذين الحِصنَيْنِ مِن استيلاء المسلمين عليهما، فشرع الملاعين النّصارى في المشورةِ بينهم فاتَّفقَ رأيُهم على غزوِ مدينةِ الجزائرِ والاستيلاء عليها.

-Haèdo : Histoire des rois d'Alger, in R-A (1870) P-P 127-128.

الواقعة الأولى

فبادروا في إحضار العُدّةِ والعسكر، فأجمعوا على غزوِها وتوجَّهوا إليها في ثلاثمائةٍ وعشرينَ جفناً[1]، وكان عساكرهم المقاتلة خمسةَ عَشَرَ ألفاً، فوصَلُوا إليها وأرْسَوْا أجفانهم بِقُرْبِها، وأنزلوا في البَّرِ بقصد حِصارها والتَّضْييق عليها، فلَزِمَ عرّوج ريس وكذلك من معه من الغزاة وكافّة أهل المدينة، ونشر أعلامَه على أسوار المدينة، وتهيّأَ لِقِتَالهم مُسْتعيناً بالله عليهم، فَقَرُبَ الكُفّارُ من المدينة وتَتَرَّسُوا[2] كما هي عادتُهم، ونصبُوا ألويَتهم المنحوسةَ وشَرَعوا في قِتال المدينةِ، وتَكالبُوا على أخذها، فهَالَ عرّوجَ أمرُهم، وخاف مِن دخولهم في التُّراب وتَستُّرهم فيه لأنّهم إذا تَستَّروا في التُّراب صَعُبَ إخراجهم، فوقعت المشورة بينه وبين عسكره فاتّفق رأيُ عرّوج وعسكرُه أن يخرجوا إليهم ويهجمُوا عليهم، ورَأَوْا أنَّ ذلك ممَّا يُكْسِرُ شوكَتَهُم ويُذْهبُ قوتهم. فاتّفقوا على الخروجِ قائلين: «إنَّ الخُروجَ إليهم واجبٌ علينا؛ لأنّنا نحنُ السّبَبُ لمجيئِهم لهذه المدينة، وأهلُها ضعفاءُ لا طاقة لهم على دفاعهم.»[3] فانتهز عرّوجُ رايسُ الفرصةَ وخرج فَتبِعه كافّة عسكره، وفتحوا أبواب المدينة، وكبّرُوا تكبيرةً وَاحدةً، وهجمُوا على عَسْكَرِ العَدُوِّ كنفسٍ واحدةٍ. فمنحهم الله أكتافهم يقتلون

(1) - أي سفينة.
(2) - التَّتَرُسُ هو التّستُّر بالسلاح الذي يُتّقى به بطشُ العدوِّ. انظر: ابن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (ت رس).
(3) - في (ب) دفعهم.

كيف شاءوا ويَأسِرُون كيف شاءوا، وتوجَّه الكفَّارُ إلى الفِرار عن المحل الذي كانوا تترَّسُوا فيه، وتركوا ألويتهم منصوبةً فنكَّسها المسلمون، وتَبِعُوا آثارهم فاسْتأصلوهم قتلاً حتَّى صارت دماؤهم تجري كالنهر، حتى قالوا: «لم ينج منهم إلاّ قدرُ ألفٍ والباقي كلُّهم قُتلوا عن آخرهم.» ثمَّ هذه البقية رَكِبُوا في أجفانهم وذهبوا إلى بلادهم، فلمَّا سَمِعَ الطّاغيةُ بهم وبما لَحِقهم مِن أهل الجزائرِ ثَمَّ[1]، لَطَمَ وجْهَهُ وشقَّ ثِيَابه، ونادى بالويلِ والثُّبورِ، وهذه الواقعة في أوائل سنة خمسٍ وعشرينَ وتسعمائةٍ (1518) وأمَّا المُسلمون القاطنون بالجزائر فقد حصل لهم من الفرَح والسُّرور ما لا مزيد عليه.

وكتب عروجُ رايس إلى أخيه خيرِالدِّين كتاباً يُعْلِمُهُ فيه شرح هذه القضية، وكيف هَزم الله النَّصارى وردَّهم خاسرين على أعقابهم، وأمرَ أَخَاه في ذلك الكتاب أن يَقْدُم إلى بلاد جيجل[2]، وأنْ يُعلِمه وقت قدومه إلى جيجل، فقَدِم خيرُ الدِّين إلى جيجل[3] بعشرةِ أجفانٍ، وأَعْلَمَهُ بقدُومه.

(1) – اسم إشارةٍ للبعيد بمعنى هنالك. ومعنى كلامه أنّ الطاغيةَ لمّا سمِع بما حلَّ بجنوده من الهزيمة بساحل الجزائر لَطَمَ وجْهَه وشقَّ ثيابه.
(2) – مدينة على الساحل الشرقي الجزائري أسسها القرطاجيون، كانت تدعى ايجيجلي، عدت مركزا محوريا للتجارة البحرية في المتوسط على مر العصور، اشتهرت بطيب مآكلها وغزارة أشجارها، تبعد عن بجاية بحوالي 97 كم، وعن العاصمة بحوالي 359 كم. عن جيجل انظر: – الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 268.
– حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، ص 51–52.
– أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، د– ط، الجزائر، دار البصائر، 2009، ص 278.
(3) – لأنَّ خير الدِّين كان رُفقةَ أخيه إسحاق بمدينة حلق الوادي السَّاحلية في تونس. انظر: مذكرات خيرالدين، المصدر السابق، ص77.

فلمَّا بلغ ذلك الكتابُ إلى عروج رايس أرسلَ [كتاباً][1] إلى خير الدِّين مُضَمَّنَهُ: «أنَّ في ناحيةِ جيجل شيخاً مُقدّماً على طائفةٍ مِن البربرِ، هو عونٌ للنّصارى الذين ببجايةَ وجاسوسٌ لهم، ويُمدُّهم في كلِّ سنةٍ بسبعةِ آلاف صاعٍ من البُرِّ، وألفِ شاةٍ وسبعمائةِ بقرةٍ.» أنْ يكون في التَّحيلِ لأن يُدخِلَ هذا الخائِن في قَبْضَتِه[2].

فعند بلوغ هذا الخبر إلى خيرِالدّين خرجَ هو وجماعةٌ مِن الغزاةِ واجتهدَ إلى أن تمكَّن منه، فلمَّا تيقَّنَ الخبيثُ أنَّه لا خلاص له مِن قبضته؛ صالح خيرَالدّينِ على أنْ يُؤديَ إليه ما كان يُؤديه للنَّصارى، وأخذ منه ثقةً[3]، فعند ذلك أَعْلَمَ أخاه عروجَ بما قدَّره[4] على الخبيثِ الخائنِ للمسلمينَ.

ثُمّ رَكِبَ في أجفانه وقَدِمَ إلى الجزائر واجتمع مع أخيه عروج، وتفرغَا لتمهيد الملك وإرساء قواعده.

(1) – مابين المعقوفتين زيادة منّا اقتضتها الضرورة.
(2) – أي: يتربص به حتى يدخله في طاعته ويوقفه عن إمداد النصارى بالمال والطعام، والهاء في قبضته تعود على خيرالدين.
(3) – أي: أخذ خيرُالدين من هذا الشيخ عهداً على ذلك.
(4) – أي: بما فرضَه عليه نظير كَفِّ خيرالدين يدَه عنه، ويذكر خيرُالدِّين أنَّه أمر بضرب عنق هذا الشيخ وعيّن بدلاً عنه شيخاً آخر. انظر: مذكرات خير الدين: المرجع السابق، ص 80.

[الإخوة بربروس وسلطان تلمسان]

وكان سلطانُ تلمسانَ[1] في ذلك العهد مِن بني زيان، وكان له بن أخ أراد الوثُوبَ عليه فَفَطِنَ لذلك، فَفَرَّ مِنه إلى الطّاغية المستولي على بلاد الأندلسِ فأكرم نزوله وأحسن إليه وأظهر للّعين أنْ يُعينه على أخذ البلاد السَّاحلية مِن إفريقية ويُقيمَهُ بها، ليتمكَّن هو اللّعينُ مِن تلك البلادِ بسببِ ذلك[2]؛ فأنشأَ عِمَارةً وشَحَّنَهَا بجماعةٍ[3] مِن رجاله المقاتلةِ، وأرسلهم إلى

(1) - تلمسان مدينة أزلية لها سورٌ حصين تنطق بكسرتينِ وسكونِ المِّيم وسِّينٌ مُهملة، وبعضهم يقول تنمسان بنون عوضاً عن اللام، ويذكر أبو راس الناصر أنَّ أوَّلَ مَن اختطَّ تلمسان هم "بنو يفرن" وكان ذلك قبل الفتح، دام الملك في بني يفرن على قول حسن الوزان أزيدَ من ثلاثمائةِ سنةٍ إلى أن انتزع مُلكها يغمراسن وتوارثها من بعده أبنائه وأصبحوا يعرفون ببني زيان. وكلٌّ من بني يفرن وبني زيان ينتسبون إلى قبائل زناتة الأمازيغية، تقع مدينة تلمسان بالتحديد في أقصى بيلك الغرب الجزائري على سفح جبل يرتفع بـ 800 متر عن سطح البحر تبعد حاليا عن الجزائر العاصمة بـ 540 كم عن تلمسان انظر:

- أبو راس الناصر: عجائب الأسفار، المصدر السابق، ج 1، ص108.
- حسن الوزان: وصف إفريقيا، ج 2، ص 7- 8.

(2) - للتفصيل أكثر فيما يخص الصراع على الحكم في تلمسان بين العثمانيين والإسبان انظر: - أحمد توفيق المدني: تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530- 1554، مجلة الأصالة، العدد 26، رجب 1395/ جويلية 1975، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص 41- 45.

Ernest Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus – reculés jusqu'à la coquété française(1830), Ernest Leroux, Paris, T3, P70-86.

(3) - سقطت من (أ) ووردت في (ب).

مدينة تنس[1] فاسْتولوا عليها، ومَكَّنوا منها ابن أخ سلطان تلمسان تحت نظر الطّاغية، ورجع النَّصارى إلى بلادهم، وتركوا فيها أربعةَ أجفانٍ وخمسمائةٍ مِن المقاتلةِ. فسمِع بذلك خيرُ الدّين فأدركته الحميَّةُ لِدِينِ الإسلام، ورَكِبَ إليها بحراً بجملةِ أجفانِه، فحين أرسى بها فرَّ النَّصارى مِن أجفانِهم، وتحصَّنوا بالمدينةِ، فشرع خيرُ الدِّين في قتالهم يوماً مِن الصُّبح إلى العصر، فلمَّا كان اللّيل هربَ القائمُ اللّعينُ، فعند الصبح خرج إليه أهلُ المدينةِ وسلَّمُوهَا إليه، فَقَبِلَ خيرُالدّين عُذرهم، وكان رحمه الله سليم الطبيعة.

فدخل المدينة واحتوى على جميعِ ما فيها، فوجد بها عَدَدَ[2] النَّصارى أربعمائةٍ، وكثيراً من الأمتعةِ، فرجع بهذه الغنيمة إلى الجزائر، فاستقام هو وأخوه بعمالتها، فكانت النَّاحيةُ الشرقيةُ لخيرِالدِّين، والنَّاحيةُ الغربيةُ لأخيهِ.

واستوطن خيرُالدِّين بمدينة تدلس[3] من النَّاحيةِ الشَّرقيةِ، وجعل معه عسكراً من جماعته وعيَّن لهم مُرتّباً ليستعين بهم على فَتْحِ ما بقيَ من تلك

(1) - اسمها روماني هو (كرطيناس) تعد أحد أهم المدن التي استقر بها الأندلسيون خلال العهد العثماني، تقع حاليا غرب مدينة الجزائر العاصمة ضمن النطاق الإداري لولاية شلف، وتبعد عن مركز الولاية بحوالي 50 كلم كما تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 210 كلم

(2) - سقطت من (أ).

(3) - تدليس أو دلس مدينة عتيقة بنها الرومان، تقع على الساحل بين مدينتي بجاية شرقا

النَّاحية، وجعل في كلِّ ناحيةٍ مِن تلك العمالةِ نائباً مِن جنابه.

فلمَّا سَمِعَ القائمُ الذي فَرَّ مِن تنس[1] المغرب أنَّ خيرَالدِّين أقلع عنها، واستقرَّ بمدينة "تدلس المشرق" رجع إلى تنس فقَبَلُوه أهلُها ودخلوا تحت طاعته، وجعل يُغيرُ على عمارةِ عروج مِن النَّاحيةِ الغربيةِ.

فاستقدم أخَاه خيرَالدِّين مِن مدينة "تدلس" فوصل إليه للجزائر، فاستنابه بها وجمع عروجُ عسكراً برسم الخروج إلى النَّاحية الغربية ليتفقد أحوالها، ويتمكَّن من القائم المنحوس الذي بتنس.

واسْتفتى علماءَ الجزائر في ذلك، فأفتوه بإبَاحة دمِه ودمِ مَن معه مِن المُفسدين[2]، فخرج عروجُ بعسكرِه، وقد كان بلغه أنَّ سلطان تلمسان أضرَّ بأهلِها وعَمَّهُم جُوره. فثنى عزمَه إليها، وكان لسلطان تلمسان أخوَانِ قد حَبَسَهُمَا. فوصل إلى أحواز تلمسان فجعل أهلُها يَنْسِلُونُ إليه مِن كلِّ ناحيةٍ، ويتلقَّونه بالطَّاعةِ والخدمةِ.

فلمَّا رأى سلطانُ تلمسان تَيَقَّنَ أن لا طاقة له لحرب عروج، ففرَّ مِن تلمسان بجميع ما احتوت عليه يَدُه مِن الذّخائِرِ والأموال، فدخل عروجُ

والجزائر العاصمة غربا، ضمن إقليم بومرداس، تبعد عن الجزائر العاصمة قرابة 100 كلم.

(1) – في (ب) و (س) و (ر) تدلس وهو خطأ، والصّحيح هو تنس كما يُفهم من سياق الكلام.

(2) – وذلك بقوله: «...أيها السّادة ما حكم الشرع فيمن تملأ مع الكفار الإسبان وبايع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدّين.وقابل نصحنا بالكنود؟ فأجابه العلماء بقولهم قَتْلُه واجبٌ ودمه هدرٌ وماله مباحٌ». انظر: مذكرات خيرالدين: المصدر السابق، ص 83.

تلمسانَ وأقام بها سلطاناً وأطْلق أخَوَيْ السُّلطان المظلُومَيْنِ، وذهب الخبيث[1] إلى فاس[2] مستجيراً بسلطانها مِن بني مرين[3] ومستعيناً به على ردِّ بلاده كما كانت عادة أسلافه مع أسلافه.

---

(1) – المقصود بالكلام هنا يحي بن محمد السابع المعروف بالثابتي.

(2) – يذكر أبو عبيد الله البكري أن فاس أُسست سنة(192/ 808) ويتحدّث الحموي على أنّ فاس هي حاضرة بلاد المغرب وأجلّ مدنه قبل أن تُختط مراكش، يعود الفضل في تأسيسها إلى إدريس بن إدريس، اختلف في سبب تسميتها بفاس على أقوال أشهرها أنّ إدريس عند حفره لأسس المدينة استعمل فاساً ذهبياً، وهناك من يرى أنه سميت بهذا الاسم لأن إدريس عند حفره أسس المدينة وجد فأساً من ذهب، وهناك من يرجع التسمية إلى النّهر الذي يخترق المدينة ويعرف باسم ساف، يصفها المكناسي حالها في العهد العثماني قائلاً: «...وهذه المدينة العظيمة المقدار الكثيرة الآثار الشهيرة في الأقطار المتوفرة الأقطار فضلها أشهر من أي يذكر، وأوضح من أن يُجحد أو ينكر، وخيرها واجب على المسلمين أن يُشكر، إذ هي بلد العلماء الأعلام وإليها الرِّحلة والإلمام، فالعلم بها دُرَّسَ وبساحتها غُرِسَ، وأرضها مباركة الحظ والتأسيس، مشتهرة بحسن الخط والتدريس، مختصة بكلِّ شيء نفيس....» عن فاس انظر:

– ياقوت الحموي: المرجع السابق، ج4، ص 230–231.

– علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د-ط، الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972، ص 44– 45.

– محمد بن عبد الوهاب المكناسي: إحراز المعالي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تحقيق محمد بوكبوط، ط الأولى، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، دار السويدي للنشر والتوزيع،2003، ص332.

(3) – المقصود بالكلام محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

[الصِّراعُ على قلعةِ بني راشدٍ]

وكانت قلعة بني راشد[1] مِن أغنى بلاد الله زرعًا وضرعًا تذهب المِيْرَة[2] منها إلى كلِّ ناحيةٍ وكانت "وهران" وقتئِذٍ بيد النَّصارى، فكانت تأتيهم المِيرَةُ مِن "قلعة بني راشد" فيرتقي بذلك أهلُها ويستعينون على قتال المسلمين، فلمَّا تمكَّن عروجُ مِن مملكةِ[3] تلمسان منع أهل القلعة مِن إمداد النَّصارى بما كانوا يمدُّونهم به فضاقت أحوال النَّصارى بسبب ذلك.

فعند ذلك بعث سلطانُ تلمسانَ المستوطنُ بمدينةِ "فاسٍ" إلى النَّصارى قائلاً لهم: «... انظُرُوا ما حلَّ بكم حين انْقَطعت دولتنا عنكم وتَمَكَّنت منها الأتراك كيف قَطعُوا عنكم المِيرة مِن القلعة وغيرها، فلو كُنتم أعنتمُونِي على قتال عروج وأَمْدَدْتُموني بالمال والرِّجال ما صار أمركم إلى هذا، فانظروا الآن في هذا الأمر وتَدَاركوا الحال قبل أن يمتدَّ طمع هذا الرَّجل إلى أخذ المدينة مِن أيديكم.»

فلمَّا سَمِع النَّصارى هذه المقالة مِن هذا الخبيث أجابوه قائلين: «أنت لم تستعن بنا ولم تطلب منَّا مدداً، ولو فعلت لبَذَلْنَا أنفُسَنا في نَظرِكَ، والآن

(1) – هي مدينة هوَّارة حاليًا تقع في الغرب الجزائري وبالتحديد في إقليم ولاية وهران، تبعد عن معسكر ب 25 كلم وعن مستغانم بـ 55 كلم.
(2) – هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. انظر، بن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (م ي ر).
(3) –سقطت مِن (ب) ووردت في (أ).

نحن معك نُمِدُّك بما تريدُ، فتَوجَّه إلى عدوِّك وقَاتله فكلّ ما تحتاج إليه فنحن مكفُلون به.» فكتب الخبيث إلى النَّصارى: «أمِدُّونِي بكذا مِن المال؛ لأُنفِقَه على الجيش ونُخَلِّصَ المدينةَ مِن الأتراكِ، فحين ترجع العمالة إِلَيَّ أُمِدُّكم بما كنت أمدُّكم به مِن الزَّرع والأنعام وسائِرِ ما تحتاجون إليه.»

فَوَجَّهُوا النَّصارى[1] إليه سَبْعَةَ آلافِ دينارٍ[2]، وأخذوا منه رهنًا ستين[3] مِن أبناء شيوخ العرب. فجمع الخبيث مِن الخيل نحو الخمسةِ عشر ألفًا، وخرج مِن نصارى "وهران" ممدِّين للخبيث نحو خمسةَ عَشَرَ مائةٍ.

فلمَّا سمع خيرُالدِّين بذلك وجَّه جيشًا إلى قلعة "بني راشد"، وأمَّرَ عليهم أخاه إسحاق[4] فلمَّا وصلوا إلى القلعة وجدوا بها جيشًا عظيمًا

(1) – الصواب فوجّه النّصارى؛ لأنّ الفعل إذا كان مسنداً إلى مُثنى أو جمع وجب حذف الضمير منه على اللغة الفصيحة وإثبات الضمير لغة بلحارث بن كعب وجماعة مِن العرب وهي لغة ضعيفةٌ عند العلماء والنحاة تعرف بلغة (أكلوني البراغيث).
(2) – في (ر) سبعة آلاف دينار ذهبي.
(3) – سقطت من (أ) ووردت في (ب) و(س) و (ر).
(4) – هو إسحاق بن يعقوب بن يوسف، هو أكبر إخوته، كان مقيما في جزيرة مدلي لكن سرعان ما التحق بإخوته في الجهاد البحري، لم تضاه شهرته شهرة أخويه خيرالدين وعروج إلا أنَّه لا يقل عنهما شجاعة حيث يذكر يلماز أزتونا أن إسحاق استطاع بالرغم من قلت عدته وعتاده الصمود في وجه جيش إسباني قوامه ألفيْ جندي معززين بعشرة آلاف جندي من العرب المتحالفة مع الإسبان ولولا تأخر الإمدادات لاستطاع رد الحصار الذي ضُرب عليه في قلعة بني راشد استشهد إسحاق في 31/ جانفي1518. عن إسحاق انظر:
- مذكرات خيرالدين: المصدر السابق، ص21-22.
- يلماز أزتونا: المرجع السابق، ج1، ص250.
- سامح عزيز التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص 39-42.

مِن نَّصارى "وهران" يُحاولون أخذها، فوقع بينهم قتالٌ عظيمٌ، وكان النَّصرُ لطائفةِ الإسْلامِ، وقُتِل مِن النَّصارى نحوُ سبعمائةٍ، وأُسِرَ منهم ثلاثمائةٍ، ودخل المسلمون القلعة فلمَّا حصل(كذا) المسلمون في القلعة ورد عليهم سلطان "تلمسان" المنحوس بجيشٍ مِن العرب وأشياعه مِن النَّصارى، وأحاطوا بها مِن جميع جهاتها، وشرعوا في قتالها، فخرج إليهم المسلمون يوماً، فاسْتولوا على مائةٍ وعشرينَ مِن النَّصارى فدخلوا بهم القلعة وبَقَوْا أيَّاماً وعزموا على الخروج مرَّة أخرى للقتال، فأخبر بعض الجواسيس بذلك لسلطان(كذا) تلمسان الخبيث فنصب النَّصارى تلقاءهم المدافع، فحين خرج المسلمون رَمَوْا عليهم بجملة تلك المدافع، فاستشهد جماعة كبيرة منهم، ورجع بقية الجيش إلى القلعة فبقَوْا مَحْصُورِينَ نحو سِتَةَ عَشَرَ شَهْرًا.

فجعل النَّصارى نفقاً تحت الأرضِ ومَلَؤُوهُ بالبَارُودِ، فحين أخذت النَّار فيه انفرجت قطعةٌ مِن القلعةِ، فأراد المُحَاصِرُونَ الهجوم مِن تلك الفرجة، فمنعهم طائفةٌ مِن الغزاة فقال المُحَاصِرُونَ لهم: «لا بُدَّ أن نأخذ هذه القلعة ولو مكثنا عليها سِتةَ سنين. فركن المُحَاصِرُونَ إلى المواعدةِ، ووقع بين الفريقين شرائط منها:

1- أن يَرُدَّ المَحْصُورُونَ جميع النَّصارى الأُسارى الذين عندهم.

2- وعلى النَّصارى أن يَخْرُجَ المَحْصُورُونَ بجملةِ أسبابهم وسلاحهم.

فوقع الاتفاق على ما ذُكِرَ.

[استلاء سلطان تلمسان على قلعة بني راشد]

فَأخذ المَحْصُورُونَ في الخُروجِ، فعند ذلك نقض الشروط مِن المُحَاصِرِينَ، فأخذتهم الحميَّةُ ونادوا بِاشْتعال الحربِ، فوقع بينهم قتالٌ عظيمٌ، فمات في هذا القتال إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ وقام مَقَامَه رجلٌ مِن خواصه اسمه "إسكندر"[1]، وَجَدَّ هو وجماعتُه[2] حتَّى اسْتُشهدوا جميعاً رحمهم الله فاسْتولى الخبيث على القلعة ثُمَّ توجَّه إلى "تلمسانَ" هو ومَن معه مِن العربِ والنَّصارى، فحاصرُوهَا سِتَّةً وعشرينَ يوماً فعند ذلك خرج عروجُ هو وجماعتُه إليهم، فلم يزل يقاتلهم حتَّى اسْتشهدَ[3] جميعُهم رحمةالله عليهم، فلمَّا سَمِعَ بذلك خيرُالدِّين سلَّم الأمر لله تعالى[4].

وكان قد أدركه فصلُ الشِّتاء فلم يقدر على الحركة فيه، فلمَّا دخل فصلُ الرَّبيعِ خرج بمحلّةٍ[5] كبيرةٍ احتوتْ على ستمائةِ مقاتلٍ وعشرينَ ألفَ فارسٍ، وبَقِيَ يَحْرُسُ العمالة خوفاً مِن سلطانِ تلمسانَ[6].

(1) - يذكر خيرالدين أن إسكندر كان من المقربين لإخيه إسحاق وهو وكيله في جميع الأعمال.

(2) - في (ب) جماعة.

(3) - كان ذلك سنة 924/ 1518 عن هذه الواقعة واستشهاد عروج. انظر:- يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج1، ص 256. - سامح عزيز التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص 64-68. - Grammont .H-DM : Quel est le lieu de la mort D'aroud'j Barberousse ? , in R-A (1878), P-P 338-399, Volume N° 22.

(4) - في (ب) استسلم لأمر الله تعالى.

(5) - هي الفرقة العسكرية.

(6) - تسببت هزيمة عروج ومقتله في حدوث العديد من التمردات ضد خير الدين في جهات

وقد كان تَخوَّف على النَّاحية الغربيةِ مِن سلطانِ تلمسانَ، فبعث خيرُالدِّين إلى أهل العمالة قائلاً لهم: «**إذا قَدِمَ إليكم سلطانُ تلمسان فأَظْهِرُوا لهُ وصَانِعُوه بالهدايا لئلاً يلحَقكُم منه ضَرَرٌ.**» فلمَّا دخل سلطانُ تلمسانَ في عمالة خيرِالدِّين أطاعُوهُ أهلُ العمالة[1] وقابلوه بالهدايا؛ كما أوصى خيرُالدِّينِ.

وتوجَّه السلطانُ الخبيثُ إلى ناحية الجزائرِ لطلب خيرَالدِّين، وعِمَارَةُ النَّصارى من البحر باتفاقٍ بين سلطانِ تلمسانَ والنَّصارى.

الواقعة الثانية[2]:

فبينما خير الدين في انتظار سلطانِ تلمسانَ بأحوازِ الجزائرِ ولم يباعد عنها، إذ ظهرت لهم سُفُنُ النَّصارى تَسِيرُ سيْر السَّحاب قاصدةً إلى الجزائر، وقد كان الوقت الذي رأوهم وقت الزوال، فلمَّا[3] (كذا) كان وقت العصر إلاَّ وقد أرْسَوْا على ساحلِ المدينةِ، فبعثوا إلى خيرالدِّين كتاباً يُهدِّدُونه فيه مضْمُونُه: « انظر ما حلَّ بأخويكَ عروجَ وإسحاقَ ومَا آل

مختلفة، فقد ثارت منطقة زواوة بقيادة أحمد بن القاضي، وتبعتها كل من تنس وشرشال، واغتنم السلطان الحفصي في تونس الفرصة وأرسل لخير الدين يطلب منه الاعتراف بسلطته والخضوع له. – سامح عزيز التر: المرجع السابق، ص 71.

(1) – انظر هامش ص51.

(2) – يذكر روسو أنها كانت في 17/ أوت 1518. انظر: – Alpons Rousseau : Op.cit, P60

(3) – كذا في جميع النسخ والصحيح "فما كان وقت العصر إلاَّ وقد أرسوا على ساحل الجزائر".

أمرَهما إليه من الإهانة والقتل، فإن نجوت بنفسك فبها ونعمت إلا حلَّ بك ما حلَّ بهما، فقد دنت[1] لنا الدَّولة عليكم، وقد ذهب نَحْسُنَا وأقبل سعدُنا وَ[الحرب][2] كما علمت سجالٌ.»

فأجابهم خيرُالدِّين: «إنَّ جماعتنا الذين مَاتُوا في حربكم أحياءٌ يُرزقونَ عند الله سُبْحَانه وتعالى، رضِي الله عنهم ورضُوا عنه، فهم يتقلَّبُون في قصورٍ وأنهارٍ، يَتَنَعَّمُونَ بحورٍ عِينٍ، ولهمُ الدَّرجاتُ العلى لكونهم باعوا أنفسَهم من الله، ونحنُ راغبون في جهادكم فإنَّهُ لا يخلو عن إحدى الحُسْنَيَيْنِ إمَّا الظفرُ بكم أو حصول ما حصل لإخواننا مِن كرامة الله ورضوانه[3]، فَأَجْهِدُوا علينا جُهْدَكم، فما دُمْنا في قيد الحياة فإنَّكم لا تظفرون مِن الجزائر بحجرٍ مِن أحجارها، وليس بيننا وبينكم إلاَّ السَّيفُ، حتَّى يَحْكُمَ الله بيننا وهو خيرُ الحاكمين.»

فلمَّا وصلَ جوابُ خيرالدّين إليهم دخلتهم الحَمِيَّةُ وأمَرَهُم المُقَدَّمُ[4] عليهم مِن قِبَل الطَّاغية بالنزولِ إلى السَّاحل، فنزلوا مساءَ ذلك اليوم

(1) – كذا في المخطوطين(أ) (ب) والصحيح دالت. كما قد يكون المقصود منها اقتربت لنا الغلبة عليكم وبهذا يكون المعنى صحيح.

(2) – سقطت من المخطوطين (أ) (ب) وهي زيادة منا اقتضتها الضرورة.

(3) – كما في الآية الكريمة: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ». الآية **51** سورة التوبة.

(4)– هو: هقو د منكادو Hugo de Moncade نائب ملك صقلية. انظر:

الذي قَدِمُوا فيه، فسمع خيرُالدِّين بنزولهم، فعيَّنَ ثلاثمائةٍ من الجُندِ برسم حراسةِ المدينةِ، ومثلَهم من أهلِها، وجعلَ خمسةَ آلافٍ مِن الجُندِ مُهيَّئِين للقائِهم، واستعدُّوا غاية الاستعداد، واشتغل الكفَّارُ يومين عن القتال بسببِ إنزال آلاتهم الحربيَّة إلى السَّاحل، ثمَّ انقسموا فرقتين، وقصدت كلُّ فرقةٍ منهم ناحيةً مِن المدينة وصَفُّوا سُفُنَهُم تِجَاهَ المدينةِ، ووقعت المحاربة بينهم برّاً وبحراً، فخرج إليهم خيرُالدِّين في جماعتِه المجاهدين مِن المدينة وشَرعوا في قتال الكُفَّارِ مُسْتعينين بالله عليهم، وجعل خيرُالدِّين يُحرِّضُ المُسْلمينَ على القتال، تارةً في المَيْمَنَةِ، وتارةً في المَيْسَرَةِ، وتارةً في القلب فاشْتدَّ المُسلمون عند ذلك في القتال وأخلصوا نيَّتهم لله عزَّ وجَلَّ وهجموا على الكُفَّارِ مِن كلِّ ناحيةٍ، فلمَّا رأى الملاعين مِن المسلمين مالم يكن في حساب[1]، ودام القتال بين الفريقين، ثُمَّ أنزلَ الله على أوليائِه المُؤمنين نَصْرَه، وألقى الرُّعب في قلوبِ أعدائِه الكافرين، فانهزموا إلى سُفنهم وتَبِعَهُم المسلمون في الأثر فقَتلُوا الكثير منهم، وكان عِدَّةُ المُقَاتِلِينَ منهم عشرين ألفاً، فلم يبق منهم إلاَّ ستةُ آلافٍ، فلمَّا ألْجأهُم المُسلمون إلى ناحية البحر جعلت أجفانهم ترمي بالمدافع على المسلمين، فاضْطُرَّ المسلمون إلى الانحياز

– عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، ص43.

(1) – في (أ) حسابهم.

عنهم، ولم يقلعوا[1] عن قِتالهم إلى أنْ أظلم عليهم اللَّيلَ، فرجعوا إلى المدينة بهذا الفتح الذي هيَّأَهُ الله.

وفي أثناء ذلك هاج البحرُ هيجاناً عظيماً؛ فانقطع بسببه جماعةٌ مِن الملاعين، ولم يقدروا على الصعود في أجفانهم، ولم يتمكَّنِ المسلمون مِن قتالهم بسبب المدافع التي كان أهل الأجفان يَرمُون بها عليهم، فَخَنْدَقَ الكُفَّارُ الذين بَقَوْا في البرِّ على أنفسهم، فلم يخفَ على المسلمين مكانَهم، فرأوْهم صباح تلك اللّيلة، فخرج المسلمون إليهم بالآلات الحربيّة مِن المدافعِ وغيرها، فقاتلوهم ذلك اليومَ وليلَته واليومَ الذي بعده وليلَته، فلمَّا كان صباحُ اليوم الثَّالث سَكَنَ البَحْرُ وهدنت (كذا) أمواجُه، فَقَرُبَتْ السُّفنُ مِن البرِّ وصارت ترمي على المسلمين بمدافعها، فاضْطُرَّ المسلمون إلى الانحياز عنهم، فرفع الملاعين بقية جماعتهم، وما بَقِيَ لهم مِن العدَّة في البرِّ.

وكان مِن قدر الله سبحانه وتعالى أنَّهم لمَّا أقلعوا عن ساحلِ الجزائر قاصدين إلى بلادهم هاج عليهم البحرُ مرةً أخرى، وأتاهم الموج مِن كلِّ مكانٍ، فألقى البحر سفنَهم إلى البرِّ فَعَطَبَتْ عامتُها إلاَّ القليلُ. وكان ذلك من تمام عناية الله سُبْحانه وتعالى لأهل الجزائر، فقاتل المسلمون الكفَّار الذين رمَاهم البحرُ إلى البرِّ، فاستغاثوا بأصحابهم الذين في الأجفان، فشغلهم ما هم فيه مِن هيجان البحر عنهم، فاستولى المسلمون عليهم

(1) – أي لم يتوقف المسلمون عن قتال النصارى إلى غاية الليل.

قتلاً وأسراً، فكان جملة الأُسارى ثلاثةَ آلافٍ، وثلاثةً وثلاثين أو سِتّةً وثلاثين مِن رؤسائهم، ومِن جملة الرُّؤساء مُقدَّمُ العَسْكَرِ قايد الجيش يقال له بلسانهم الجِنِرَال[1]، [وكذا مُقدِّمُ الأجفان الذي يقال له أَمِيرَال][2] وكان اللَّعين في أثناء انهزامه مِن المسلمين يُمنِّي نفسَه بالعودةِ مرةً أخرى إلى الجزائر والاستيلاء عليها فقطع الله رجاءه بالأسر.

فرجع خيرُ الدِّين وطائفته بالأُسارى إلى الجزائر، وكان يوماً مشهوداً وموسماً مِن مواسم الدَّهرِ معدوداً، وحُبِسَ الأُسارى في مكانٍ أُعِدَّ لهم تحت الأرضِ، ووُكِّلَ بهم وكلاءُ يحرُسُونَهم.

وأمَّا جِنرالهم الأعظم قائِدُ الجيش فإنَّه أنزله معه في قصره، وكان اللَّعين جريحًا فأمر بمراعاته في المأكل والمشرب إلى أن استقال مِن مرضه وعُوفِيَ مِن جراحته وفعل له خيرالدِّين؛ ذلك لأنَّ اللَّعين كان عظيمًا مِن عظماءِ النَّصارى، فظهر لخيرِ الدّين أن يُحصِّلَ مِنهُم بسبَبِه مالاً برسم إعانته على الغزو، أو يُفاديَ به جماعةً مِن أُسارى المسلمين الذين ظَفَرتْ بهم الكَفرةُ، ثمَّ أنَّه ألحقه بجملةِ الأُسارى المُثقفين بحضرته.

ولمَّا وصلَ خبرُ هذه الواقعةِ إلى سلطانِ تلمسانَ، وسَمِعَ بما منح الله على(كذا) خيرالدين وعسكره مِن الظَّفر على عدوِّ الدِّين الكافر مِن الذين استعان بهم الخبيثُ، رجع إلى بلاده خَائبًا، ثمَّ إنَّ الملاعين الكافرين

(1) – في (ب) و(س) الجنران.

(2) – سقطت هذه العبارة من (ب) و(س) ووردت في (أ).

رجعوا إلى بلادهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المُومنين القتال، فاشْتدّ حزنُهم وخوفُهم مِن خيرِالدِّين ولقَّبُوه بلسانهم "بربا روشة" معناها صاحب اللِّحيةِ الحمراء.

[محاولة النصارى الفرار من الأسر]

ثمَّ إنَّ جماعة مِن الغزاة قالوا لخيرِالدِّين: «**إنَّ الأُسارى بفضل الله علينا قد كَثُرَتْ في هذه المدينة، وإنَّا نخافُ أنْ يَمْكُرُوا بنا وحصنُ العَدُوِّ مجاورٌ لنَا** – لأنَّ هذه الواقعة كانت سنة ستةٍ وعشرينَ وتسعمائةٍ وفتح خيرالدين حصنهم الذي كان تجاه الجزائر سنة تسعة وثلاثين وتسعمائة[1] – **فربَّما هؤلاء الأُسارى انتهزوا فرصةً وقطعوا البحر إليهم، إذْ المسافة قريبة.**» فظهر لخيرِالدين أن يحفر ثلاثة أنفاقِ تحت الأرضِ، ويجعلَ النَّصارى فيها وفي أثناء كونهم في تلك الأنفاق فيهم غلام يخْدُمُ الجنرال، ويخْدُم المُوكَّلَ عليهم قال لذلك الغلام: «**خُذِ المفاتيح ليلاً من عند الموكَّل وافتح لنا أبواب الأنفاق ونخرجْ ونَقْتُلْ المُوكَّلَ بنَا وجَمَاعَتَهُ، ونذهبْ إلى السَّاحل من ناحية الحصن المجاور لمدينة الجزائر، ونجعل لهم علامة ليبعثوا لنا القوارب ونعبر بها الحصن.**» فأجابه الغلام إلى ما أراده الجنرال، فحين تقرَّر هذا الأمر بينهم وعزموا عليه رأى خيرُالدِّين في حالة النَّوم كأنَّ دار الموكَّلين بالأُسارى تُزَلْزَلُ زَلْزَلَةً هائلةً، فانتبه مرعُوبًا مِن هذه الرُّؤيا واستعاذ بالله

(1) – يعتبر هذا التاريخ متأخر نسبيا بالنسبة لما هو متعارف عليه فسنة فتح حصن البنيون كانت 1529 أو 1530 على أقصى تقدير.

مِن شرِّها، وتَأوَّل أنَّ ذلك مكروهٌ يَحْدُثُ مِن النَّصارى، وكانت هذه الرؤيا عنايةً مِن الله سبحانه وتعالى وكرامةً منه لخيرالدّين أكرمه الله بها، فلمَّا صلَّى الصُّبح وفرغ مِن قراءتِه وأورادِه، أتى إليه الموكَّل على عادته[1]، يُفَوِّض إليه ما يحتاجُ هو إليه.

فسأله خيرُالدِّين عن الغلام الجريح وقد كان علِم بجراحته فأخبره الموكَّل أنَّه قد عُفِيَ مِن ثلاث الجراحة (كذا) وهو عنده، ويخدم له، ويخدم للجنرال، فقال له خيرُالدِّين: « **عَلَيَّ به السَّاعة.** » وكان خيرُالدِّين ذا عقلٍ، وسياسةٍ، وتَفَطُّنٍ، وفِراسةٍ، فجاء المُوكَّلُ بالغلامِ إليه فما وقف بين يديْه واستفهمَهُ خيرُالدِّين عمَّا دار بينه وبين الجنرال مِن الكلام-موهماً أنَّه عارفٌ به مطّلِعٌ على حيلته -فأنكر الغلام إنكاراً كُلياً، فهدَّدَهُ خيرُالدِّين وبالغ في زجره، فحينئذٍ أقرَّ له الغلامُ بما عزم عليه الجنرال مِن الثَّورة والخروج لساحل المدينة والذهاب إلى الحصن، فقال له خيرالدين: «**هذا الأمر باتِّفاقٍ منهم أم انفرد به الجنرال فقط؟**» فأجابه الغلام بأنَّ ذلك باتفاقِ الجميع، فعند ذلك أمر المُوكَّلِين أن يبالغوا في حِراستهم، ثمَّ وجَّه الجنرال إلى أهل الحصن المجاور للجزائر أن يبعثوا إلى خيرِالدِّين في شأن رؤساء الأُسارى الذين عنده، وهم ثلاثٌ وثلاثونَ أو ستَّةٍ وثلاثونَ رئيساً كما تقدَّم[2].

(1) – في (ب) " أتى إليه الموكلين إليه على عادته".

(2) – انظر: ص 58.

الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

وبذل أهلُ الحصن فيهم مائة ألف وعشرين ألف دينار ذهب، فرضِيَ بذلك خيرَالدِّين، فبعثوا إلى الطَّاغية وأعلموه بذلك، فوجَّه إليهم المال، فأعلموا خيرَالدِّين بوصول المال إليهم فجمع خيرُالدِّين فقهاء الجزائر فاستفتاهم في ذلك، فاتفقت فُتْيَاهم على عَدَمِ فداء الأُسارى بالمال، وقالوا له: « **أيُّها الأمير إنَّ هؤلاء من أعيان النَّصارى وزعمائهم، فإذا وصلوا إلى بلادهم حصلت للنَّصارى بهم قوة عظيمة واستعانوا بهم على غزونا المرَّة بعد المرَّةِ**» ثمَّ إنَّ الفقهاء أفتوا بقتلهم. حسماً لمادة فسادهم، وقطعاً لمكائِدِهم، فلم يقبل خيرُالدِّين فيهم فداءً وبعث إلى أهل الحصن بذلك، وقد كانوا سمِعوا بما أفتى الفقهاء به فيهم، فقلقوا بذلك وجزعوا جزعاً شديداً، وبعثوا إلى سُلطانهم يُعلمونَه بما أفتى به فقهاء المسلمين، وإفتائِهم بقتل هؤلاء الرؤساء، فبعث اللَّعين إلى أهل الحصن قائلاً لهم: « **ها هي مائتان وأربعونَ ألف دينارٍ بذلتها في فداء هؤلاء الأسارى، فأعلموا به باربروشة**» فلمَّا وصل الخبر بذلك إلى خيرِالدِّين وسَمِعَ الفقهاء خافوا من غائلته، فأفْتَوْا بقتل هؤلاء الرؤساء في الحين، فعند ذلك أمر خيرُالدِّين بإخراجهم مِن السِّجن فقدَّم جنرالهم الأعظم وأمر بضرب أعناقهم، فقتلوا عن آخرهم.

فرحم الله خيرَالدِّين حيث زهد في المال العظيم وسمحت نفسُه بتركه عملاً بما أفتى به الفقهاء واعتماداً على رأيهم السُّديد والله لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً وأمر بجثَّة المقتولين أن يُرْمَوْا في البحر لئلاَّ يصل شيءٌ منهم لأهل الحصن.

وقد كان بعض الموكلين بهم أخذ جثَّة الجنرال، ودفنها خُفْيَةً مِن خيرِالدِّين، رغبةً منه في المال، ولمَّا وصل خبرُ هؤلاء المقتولين إلى بلادهم اشتدَّ حزنُهم، وضاقت أمورُهم وتضاعفت عليهم المصائبُ، فبعث سُلطانَهم إلى الحصن سبعةَ آلافِ دينارٍ في شأن تخليص جُثةِ الجنرال مِن يد المسلمين، فبعثوا الرَّسول الوارد مِن الطَّاغية لخيرالدِّين ليرغب في هذا المال، فقال له خيرُالدِّين:« **كلُّهم أُلقوا في البحر**» فقال له المُوكَّل الذي دفن الجنرال:« **يا مولانا إن أردت أن تُحصِّلَ هذا المال فإنَّه ممكنٌ لأنِّي دفنت الجنرال.**» فاستشار خيرُالدِّين العلماءَ في ذلك فأفتوا بعدم الجواز [قائلين][1]: «**إنَّه مَيْتَةٌ والمَيْتَةُ لا يجوز بيعها**» فعند ذلك أمر خيرُالدِّين أن تلقى جثة الجنرال في بئرٍ عميقٍ، فانقطع رجاء الرَّسول ورجع بأسوءِ خيبةٍ، ولله دَرُّه.

(1) – مابين المعقوفتين زيادة منا للتوضيح.

[إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية]

ثمَّ عزم خيرُ الدِّين على السَّفر إلى إقليم الرُّوم لأجل الغزو والمواصلة إلى الجهاد (كذا)، وجمع أهلَ الجزائر مِن العلماء والصلحاء وقال لهم: «**إنِّي قد عزمت على السَّفر إلى حضرة السُّلطان وأَمِنتُ على بلادكم من العدوِّ [بما تركت فيكم من المجاهدين ومن وصل إليكم من أهل الأندلس]**[1] **وما تركت عندكم من العُدَّة، لأنِّي تركت في بلادكم أكثر من أربعمائة مدفع، ولم يكن من قبل في بلادكم ولو مدفع واحد.**» فقالوا كلُّهم له: «**أيُّها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذالك، فالله الله**[2] **في أُمَّة سيدنا محمد ﷺ فإنَّ الله يسألك [يوم القيامة] عنهم.**» ومِن جملة ما خاطبه العلماء به أن قالوا له: «**أيُّها الأمير يتعيَّن جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها والذَّبِ عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذَّهاب عنهم وتركهم عُرضةً للعدوِّ.**» فعند ذلك قال لهم خيرُ الدِّين: «**أنتم رأيتم ما وقع من الملاعين الكافرين ولا يُؤمن من عواملهم، وقد ظهر لي من الرَّأي أن نصل يدنا بطاعة السُّلطان الأعظم، مولانا السَّلطان سليم**[3]**، فيُمِدُّنَا بالمال والرِّجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد، ولا يكون ذلك إلاَّ بصرف الخُطْبَةِ إليه وضرب السَّكَّة عليه**».

(1) – سقطت هذه العبارة من (أ) ووردت في (ب) و(س) و(ر).

(2) – سقطت من (أ) ووردت في (ب) و(س) و(ر).

(3) – هو سليم بن بايزيد الثاني المعروف بياوز سليم أي سليم الشديد أو القوي، ولد سنة (875/ 1470) عهد له والده بتولي زمام السلطة خلفا له بعد اشتداد المرض عليه وقد كان

فرَضِيَ أهل المدينة بذلك وصوَّبوا رأيهم فيه، فأمرهم أن يكتُبوا على لسانهم كتاباً إليه يُخبرُونه بصرف طاعتهم إليه، وكتب هو أيضاً كتاباً يتضمَّن مفهوم كتابهم، وعيَّن أربعةَ أجفانٍ للسّفر إلى حضرة السُّلطان، وقدَّم عليهم رجلاً اسمه الحاجّ حسين، ووجَّه معهم هديةً عظيمةً، فوصلت الأجفان إلى حضرة السُّلطان سليم، ونزلوا بتلك الهدية إلى الوزير الأعظم، فأعلمَ السّلطانَ بقدومهم، وأوصل إليه الهديَّة التي قَدِمُوا بها، فقبلها السُّلطانُ، وأمر بإنزالهم دار الضِّيافة، وأجرى عليهم النفقة، ووجّه صُحبتهم سنجاقاً[1] وكتاباً إلى أهل الجزائر يقول ما كتبوا

مكرها على ذلك إذ أن العادة في الدولة العثمانية أن يرث حكم الدولة أكبر الإخوة، لكن الضغط الذي تعرض له بايزيد من طرف الجيش من جهة والشعب من جهة أخرى دفعه لتعين سليم سنة (890/ 1512)، كان من أهم إنجازات السلطان سليم التصدي للخطر الصفوي الذي كان يهدد الدولة العثمانية ونجاحه أيضا في ضم كل من بلاد الشام ومصر إلى الدولة العثمانية، اشتهر بحبه للآداب والشعر فخلف العديد من الدواوين الشعرية بلغات مختلفة، اختلف في سنة وفاته اختلافا كبيرا، فيرى يلماز أوزاتونا أن وفاته كانت سنة 1520، بينما يرى نزار فزان أن وفاته كانت سنة 1534، بعد وفاته تولى سليمان ابنه منصبه واستُدعى خيرَالدِّين ليشغل منصب قبدان دريا. عن السلطان سليم انظر:

- عزتلو يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان من النشأة إلى اليوم، تقديم محمد زينهم ومحمد عزب، ط الأولى، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، 1995، ص 56- 59.
- يلماز أوزاتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ص 210- 236.
- نزار قزان: سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، ط الأولى، بيروت، لبنان، دار الفكر اللبناني،1992، ص79.

(1) – معناه اللواء أو العلم الخاص بدولة ما، ثم خُصَّ هذا اللفظ باللواء الذي يمنحه الباب العالي لولاَّته في الأقاليم تعبيراً عن ثقته بهم، تطور لفظ السنجاق ليَدُلَّ على قسم إداري معيَّن

إليه، وأنَّهم ممَّن تشملهم عنايته، وتحرسهم رعايته، فلمَّا وصل الحاجّ حسين[1] الوزير بكتاب السلطان سليم إلى "الجزائر"، استقرَّ خيرُ الدِّين أميراً بالجزائر مِن قِبَل السُّلطان الأعظم "سليم خان"[2]، وصرف دعوتها إليه وأمر بذكره على المنابر وضرب السكة عليه، وتحيَّل في فتح الحصنين الذين تجاه الجزائر؛ فسهَّل الله عليه فتحهما، وهدَّم أحدَهما وترك الآخر.

في الدولة العثمانية. انظر:

- سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص 23.

(1) – لم نقف له على ترجمة، غير قول خير الدين في مذكراته أنّه من أوثق رجاله. انظر:

- مذكرات خير الدين: المصدر السابق، ص95.

(2) – لفظة فارسية يقصد بها الشيخ أو رئيس القبيلة، تطور مدلولها ليصبح من ألقاب الملوك المسلمين خاصة في الهند وإيران، أضافه سلاطين بني عثمان إلى أسمائهم لإضفاء نوع من التقدير والاحترام عليها. انظر:

- مصطفى بن عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص157.

[سفر خير الدين إلى إسطنبول]

ثمّ بعد مدَّةٍ عزم على السّفر إلى حضرة السُّلطان، فأخذ في تجهيز نفسه، فلمَّا تمَّ له ذلك وكتب هو وأهله وحاشيته ومَن أراد أن يكون معه مِن العسكر، سافر متوجهًا إلى حضرة السُّلطان سليمان[1] الغازي خان، إذ رسم لخير الدّين في الكتاب الذي وجَّهه إليه مع "سنان بن جاويش"، بعد أن نوَّبَ على الجزائر نائبًا ينوب عنه مِن خُدَّامه، وهو خادم حسن آغا[2]، وذلك سنة 944 هـ [1537مـ] فصار "حسن آغا" يقوم بوصيَّة خير

(1) - سليمان القانوني (1520-1566) يعتبر مِن أعظم سلاطين بني عثمان، تمكنت الدولة العثمانية في عهد من إخضاع جل البلاد العربية وأوروبا الشرقية لسلطتها، وأصبحت الدولة العثمانية تعرف عند الأوروبيين بالصاعقة، خرج مُنتصرا في معظم الحروب التي خاضها خاصة ضد شارل كان إمبراطور إسبانيا والنمسا.
- يلماز أوزاتونا: المرجع السابق، ج1، ص 261- 358.

(2) - يرجع أصل حسن آغا إلى جزيرة سردينيا، وقع حسن آغا في صغيره أسيرا لدى أحد سفن خير الدّين بربروسا فكان من نصيبه، كفله وجعله كأحد أبنائه، لاحظ عليه خير الدين صفات القائد المتفاني فقرَّبه إليه وجعله مِن خاصته، خلف خيرالدين بربروسا على إيالة الجزائر مؤقتا سنة (939هـ/ 1532مـ) وبعد نجاحه في صدّ حملة شارل كان سنة (948هـ/ 1541مـ) عُيِّن من طرف الباب العالي في المنصب الذي كان يشغله نهائيا. يرجع إليه الفضل في إلحاق مستغانم سنة (946هـ/ 1539مـ) وبسكرة سنة (947هـ/ 1540مـ) بالجزائر العثمانية، توفي حسن آغا في شهر رمضان من سنة (952هـ/ 1545مـ) وخلفه حسن باشا بن خير الدين. عن حسن آغا انظر: - حسين بن رجب شاوش بن المفتي: تقيدات بن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، جمعها واعتنى بها، فارس كعوان، ط الأولى، 2009، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة، ص39.
- زامباروا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترزكي محمد حسن

الدِّين في أهل الجزائر غاية ما يمكن، ويشتغل بالجهاد على العدوِّ ولا يفتُر عنه ليلاً ولا نهاراً، فامتلأ طاغية إسبانيا غيظًا وغمًّا بعد وامتلائه مِن غزوات خير الدين وفتكاته في البحر، واستيلائه على الحصن المجاور للجزائر[1].

و"حسن آغا" المذكور كان رجلاً عاقلاً حازمًا سَديداً في رأيه، جيِّداً في تدبيره، وكان له حظٌ مِن العلم والصَّلاح، كريمَ النَّفس، سخيًا بالمال، باذلاً بالمعروف، يُراعي العلماء والصلحاء وأهل الخير، مع العدل الشَّامل، والاهتمام الكامل بالرَّعيَّةِ، ولذلك تفرَّس فيه خيرُ الدِّين فجعله نائبًا عنه لمَا احتوى عليه مِن هذه المناقب العظيمة.

وكان أنشأ إحدى وثلاثين غليوطةً بعد انتقال خيرُ الدِّين مِن الجزائر، فاشتدَّت بذلك وطأته على أهل إسبانيا، واحتوى على كثير مِن أجفانهم، وعاث في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعله خير الدين بهم أو أكثر.

فعزم الطَّاغية[2] على أن يتوجَّه إلى الجزائر مع عمارته، وأخفى هذا الخبر، واشتغل بجمع الأجفان والمقاتلة، وبعث إلى صاحب جنوه[1] بلاد الجنويز، يأمره بتجهيز ما عنده مِن الأجفان وإعدادها للسّفر.

وآخرون، د-ط، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي، 1980، ص 126.
-De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887, P56.
-Diego de Haèdo : Histoire des rois d'Alger, P67.

(1) - المقصود بالكلام خير الدين.
(2) - المقصود هنا الملك الإسباني شارل كان.

الواقعة الثالثة[2]:

ولمَّا تمَّ له ما أراد مِن هذه العمارة، سافر اللَّعين فيها بنفسه إلى الجزائر، فأرسى بجون "تمنتفوس"[3] يوم الخميس، لليلتين بقيتا مِن

(1) - جنوه مدينة قديمة أسست سنة 707 قبل الميلاد واستولى عليها الرومان سنة 222 ق-م وبقيت تحت سيطرتهم إلى غاية سقوطها في أيدي البربر الجرمان، قام الملك الفرنسي شار لمان سنة 814 مـ بضمها للتاج الفرنسي، استقلت جنوة عن التاج الفرنسي في القرن العاشر وأصبحت بعد استقلالها وإلى غاية القرن الرابع عشر مركزا تجاريا هاما، ثمّ أخذت بعد ذلك في التقهقر بسبب الصّراعات الداخلية على السلطة، فقدت نتيجة هذه الصراعات استقلالها، وأصبحت مقاطعة تابعة إداريا إلى فرنسا حينا وحينا آخر لإسبانيا، ومكثت على هذه الحالة إلى غاية إعلان الوحدة الإيطالية فأصبحت جنوه ضمن هذا الإتحاد. عن جنوه.

(2) - تعرف هذه الحملة بحملة "شارل كان" على مدينة "الجزائر"، وتعد هذه الحملة مِن أشهر الحملات الإسبانية على المدينة نظرا للعُدَّة والعتاد الذي سخَّره الملك شارل كان لغزو المدينة، أغلب المصادر التي تتحدث عن تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني تتحدث عن سير هذه الحملة ونتائجها على الطرفين الجزائري والإسباني والوضع الإقليمي عامة. عن هذه الحملة انظر: - مؤلف مجهول: غزوات خير الدين وعروج، ص 115- 128.
- مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر(948/ 1541) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية، مجلة الأصالة، العدد الثامن، ماي-جوان 1972، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص 91-111.
- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط الأولى، الجزائر، دار البصائر، 261- 271.
- صالح حيمر: التحالف الأوروبي ضد الجزائر سنة 1541 وتأثيراته الدولية والإقليمية، ص65- 110. - De Grammont : op. cit. P-P 58-69

(3) - سقطت من (ب) و(س) ووردت في (أ) ومن هذا الموضع يبدأ الشرح الحاصل في المخطوط (ب).

جمادى الثانية سنة 948 هـ [1541مـ]، وكان إرساؤه وقت العصر، وخُيِّل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة أنَّها جبلٌ سُيِّرَ في البحر، وحين أرست بذلك الجون خُيِّلَ لهم أنَّ جبلاً استقر هنالك، وحصلت بذلك صيحة عظيمة لأهل الجزائر لأنَّهم لم يروا مثل هذه العمارة سابقا.

فعند ذلك جمع "حسن آغا" أهلَ المدينة ونصَّبَ ديوانًا عظيمًا جمع فيه علماء البلد وصلحاءهم ومشايخهم، وجعل يُسَكِّنُهُم ويُطَيِّبُ نُفُوسَهُم، ويُهَوِّنُ عَليهم أمر هذه العمارة، وهو مع ذلك يستشيرُهم وينظر ما يتَّفقون عليه.

ومِن جملة ما خاطبهم به، تسكينًا لِرَوعَتِهِم: «قد وردت علينا[1] عمارة في زمن عروج رايس وكذلك في زمن خير الدين باشا، ولم يَخفَ عليكم ما يسَّر الله للمسلمين مِن النَّصر على عدوِّ الدِّين، وكيف ردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكذلك في هذه النوبةِ إن شاء الله، ومع ذلك يا أهلَ الجزائر فقد تعيَّن الجهاد علينا معشر المسلمين لا لغرضِ الحياة الدُّنيا بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل الدَّرجات العليا بالشَّهادة. فقد قال الله تعالى في حقِّ الشُّهداء **﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ الذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَيهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ**

(1) - سقطت من (س).

أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] وإن كُنَّا في قِلّةٍ وَالعدوُّ في كَثْرَةٍ[2] [فقد][3] قال الله تعالى ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ وقد وعدنا الله بإحدى الحُسْنَيَيْنِ، إمَّا الظَّفر وإمَّا الشَّهادة، وقد كتب الله علينا الموت، وختم علينا بالفناء، فلأن يموت الإنسان مجاهداً صابراً بائعـًا نفسه مِن الله (كذا) خير مِن أن يموت حتف أنفه، وقد قال ﷺ «**الجنَّةُ تحت ظلال السُّيوفِ**»[4] وقد ورد أنَّ سيوف المجاهدين معلقةٌ بالعرشِ، ويالها مِن كرامةٍ، وقد ساق الله الجهاد إلى بلادنا وأكرمنا بهذه الكرامة العظمى، فهنيئـًا لمَن سقاه الله كأس الشَّهادة، وختم له بشرب الشَّهادة، وإنَّ هذه المدينة منعناها سابقـًا مِن الكفرة، وكذلك نمنعها لا حقـًا إن شاء الله تعالى، وغايةَ ما يتأتَّى لهم أن يُطَاوِلُنَا ونطاولهم وتأتينا في خلال ذلك نصرةٌ مِن سلطاننا الأعظم أو مِن خيرِ الدّين باشا.»

(1) – الآية 168–170 من سورة آل عمران.

(2) – تذكر بعض الدراسات أن الملك الإسباني (شارل كان) استطاع حشد أسطول بحريٍّ هو الأكبر مِن حيث عدته وعتاده في القرن السادس عشر في حوض المتوسط بكامله.
للتفصيل أكثر عن استعدادات كل طرف لهذه المواجهة أنظر:
– صالح حمير: التحالف الأوروبي ضد الجزائر سنة 1541 وتأثيراته الدولية والإقليمية، ص 74–79.
– الملحق رقم :8

(3) – زيادة منا اقتضاها السياق.

(4) – حديث صحيح أخرجه البخاري حديث رقم 2818 ومسلم 2818 وأبو داود 2631. وتمام الحديث عند البخاري رقم 3025.

فحصلت لأهل الجزائر قوَّةً عظيمة بكلام "حسن آغا" ووطّنوا أنفسهم للجهاد، فعند ذلك فتح خزانةَ السِّلاح ووزَّعه في أهل المدينة مع ما يحتاجون إليه مِن البارود والرَّصاص، فعند ذلك أخذوا في الدُّعاء إلى الله والتَّضرُّع إليه في نصرهم على عدوِّ الدِّين، وجعل "حسن آغا" في كلِّ برجٍ مِن أبراج المدينة طائفة مِن البلدية[1]، ونصب ألويته المظفَّرة على أسوار المدينة، وأمَّا النَّصارى فشرعوا في النزول إلى البرِّ، وأنزلوا جميع آلاتهم الحربية، وصنعوا مِتراسـًا هائلاً، وحين رأى الطَّاغيةُ استعداد صاحب الجزائر لقتاله، استضعف عقله وقال لخواصه: «**انظروا إلى صاحب الجزائر كيف حدَّثته نفسُه لقتالنا ومدافعتنا عن أخذ المدينة! هل هي إلاَّ تحت أيدينا! وكيف يُقاتلني هذا الرَّجل مع كثرة عساكري! وهل هو إلاَّ في شرذِمة[2] قليلةٍ من الأتراك وطائفة من أهل البلد لا خبرة لهم بالحرب، وكان من حقِّ هذا الرَّجل أن يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من أبناء جنسه، ويُخلِّي بيني وبين البلد.**» وأقسم اللَّعين بما يعتقده مِن دينه أنَّه لا بُدَّ أن يخرِّب الجزائر حجراً حجراً، ويمحو أثر الإسلام منها.

(1) – يطلق اسم البلدية على الحضر ومعنى البلدية أي المقيمين في البلدة والمتأصّلين فيها شكّلت هذه الفئة في العهد العثماني نموذجا عرقيا اقتصاديا متميزا. للتفصيل أكثر انظر:
– فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر، ص 28.
- Ben Mansour : Alger XVI-XVIIe siècle, journal de Jean Baptiste Gramaye, Paris, Cerf, 1998, P87.
- Boyer : La vie quotidienne à Alger a la ville l'intervention Française, Paris, Hachette, 1963, P23.

(2) – هي الفئة القليلة من الناس، انظر الفيروز آبادي: مادة (ش ر ذ م).

وكتب في أثناء ذلك كتاباً إلى "حسن آغا" يقول فيه: «أيُّها الرَّجل أنت خديمٌ من خدَّام بارباروش وأنا ملك إسبانيا، فكيف تُحدِّثك نفسُك[1] بقتالي؟ أمَا تعرف أنِّي استوليت على تونس وأزعجت منها بارباروشة، وهي أعظم من الجزائر بكثير، وقد دخلتها عنوةً بسيفي، وخرج عنها سيِّدك بارباروشة هارباً، فتحقَّق أنِّي مالك هذه المدينة كما مَلَكْتُ مدينة تونس[2]، وإن لم يكن أخذها دفعةً واحدةً أُطَاوِلُ حِصَارها هذا الشِّتاء كلَّه، إذ معي من الزَّاد والمال ما[3] يكفي هذه العساكر، وإن احتجت إلى شيء فبلدي قريبةٌ، ففي قرب الزَّمان يأتي ذلك الشيء، وقد بذلت لك الأمان، فإن قبلت فَبِهَا ونعمت، وإن لم تقبله إلى أن نشرع في القتال فلا أمان لك، فانظر لنفسك، ودبِّر على من معك، فإن عاندت ولم تمثل[4] إلى ما دعوتك إليه، أمرت

(1) - سقطت من (ب).
(2) - سقطت مدينة تونس في الحملة التي قادها شارل كان بالتحالف مع السُّلطان الحفصي الذي خلعه العثمانيون سنة (941هـ/ 1535م) اشترك في هذه الحملة نحو أربعمائة سفينة حملت على متنها أربعة وعشرين ألف جندي وخمسة عشر ألف فارس، استطاعت هذه الحملة أن تطرد القوات العثمانية التي كانت ترابط بتونس بعد خسارة ستة آلاف جندي على الأقل، وبعد سيطرة القوات الإسبانية عليها عاثوا فيها فسادا إذ تتحدَّث بعض المصادر عن مقتل ستين ألف تونسي ومثلهم من الأسرى، عن هذه الحملة انظر: ابن أبي دينار: المؤنس بأخبار إفريقية وتونس، ص 152.
- مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، د-ط، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر، ج1، ص 152.
(3) - في (ب) مالا.
(4) - في (س) تمل.

العساكر يدفعون إلى المدينة دفْعةً واحدةً، وَيَقْلِعُونَها حجراً حجراً، ويقتلون من فيها من كبير وصغير».

وأتى رسولُ اللَّعين ظاهراً في نخوةٍ عظيمةٍ[1]، فبوصوله دفع الكتابَ إلى "حسن آغا" فلمَّا قرأه وفهمه، [قلب الكتاب][2] وأمر أن يُكتب فيه: «يا كلب النَّصرانية، هل أنت إلاَّ كلبٌ من كلاب النَّصارى [أنت لا تقدر][3] على إضعاف بلاد البَرَابِرَة فكيف على مدينة الجزائر؟ ولو سمع سلطانُنَا الأعظم بأنَّك طغيت على الجزائر، لأرسل إليك عبداً من عبيده بشرذمةٍ من عسكره يمحيك[4] بحول الله وقوته، [أمَا علمتَ أنَّ][5] في عساكر الجزائر ما يقابلك [ويمحي أثرك][6]، وسترى عاقبةَ أمركَ، فاجهد جهدكَ غير موفق، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدَّار، وقد استدللنا بكتابك على قلَّةِ عقلك، إذ الإنسان لا يفتخر بشيء حتَّى يفعله، وأنت عكست ذلك، وقد أتيتم لهذه المدينة مرَّتين، مرَّةً في مُدّة عروج رايس، ومرَّة في مدَّة أخيه خير الدين باشا، وقد سَوَّد الله وجوهَكُم فيهما، وفي هذه المرَّة كذلك إن شاء الله» وختم الكتاب

(1) - في (س) وأتى رسول اللعين ظاهرا في فخر عظيم.
(2) - سقطت من (س) و(ر) ووردت في (أ).
(3) - في (س) ما قدرت.
(4) - في (س) يستأصلك.
(5) - سقطت هذه العبارة من (س).
(6) - سقطت من (س).

ودفعه إلى رسول اللَّعين، [فلمَّا وصل إلى اللَّعين][1] وقرأه وفهمه استشاط اللَّعين غيظًا وغضبًا، فأمر مِن ساعته بإنزال المدافع، فعند ذلك دبَّرَ "حسن آغا" مع أهل المدينة أنهم يخرجون للنَّصارى ليلاً ويهجمون عليهم مِن ورائهم في محل نزولهم، فَصَوَّبُوا كلُّهم رأيه، فانتخب مِن العسكر ستمائة مقاتل وجعل معهم ألفَيْ فارسٍ، فلمَّا كان الرُّبع الأخير من اللَّيل فتحوا بابًا مِن أبواب المدينة وخرجوا إلى النَّصارى مِن ناحية واحدة، فلمَّا قاربوهم كبَّرُوا بصوتٍ واحدٍ عالٍ، ورَمَوْا عليهم بالمكاحل دفعةً واحدةً، وكان الكافر بين ناعسٍ و نائمٍ وسكرانَ، فاعتقد النَّصارى -لعنهم الله- أنَّ المسلمين خالطوهم، فأخذوا سلاحهم، وجعلوا يَقْتلون بعضَهم بعضًا، والمسلمون على بعد يواصلونهم، وصارت سفن النَّصارى ترمي بالمدافع على المسلمين ليَرُدُّوهُم عن إخوانهم[2] الذين في البرِّ، فعند ذلك رجع المسلمون إلى المدينة، وافتقد الكفَّار بعضَهم بعضًا عند الصّيحة التي وقعت بهم تلك الليلة، فوجدوا عدَّة القتلى أكثر مِن ثلاثة آلافٍ، فحصل لهم بذلك انكسارٌ كبيرٌ[3] وحزنٌ عظيمٌ.

فعند ذلك اشتدَّ غيظُ اللَّعين، وهاج غضبه فأمر بنصب المدافع تِجاه المدينة، وكان عددها مائتي مدفع، وعلا في الرمي على المدينة من كُدْيَة

(1) - سقطت من (أ) و وردت في (س) و (ر).
(2) - في (س) يواصلونهم بالرمي بالمدافع من سفنهم على المسلمين.
(3) - سقطت من (س) و (ر) ووردت في (أ).

الصابون -وهو المحل الذي فيه الآن برج مولاي حسن- وكان اللَّعين الطَّاغية بات تلك الليلة بـ "الحامة"[1]، وكانت تلك ليلة الاثنين، وكان نزول اللَّعين إلى البرِّ يوم الأحد ودارت عليه عساكره، ويقال أنَّ عدَّتهم تناهوا (كذا) سبعين ألفا.

وكان ابتداء ظهور العمارة يوم الأربعاء ثلاثَ ليالٍ بَقِيْنَ مِن جمادى الثانية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة [1541م].

فعند صُبح يوم الإثنين تحركت النَّصارى إلى المدينة ومعهم الطَّاغية، فخُيِّلَ لأهل الجزائر أنَّهم نملٌ أسودٌ قد ملأ الفضاء، وكان فيهم مِن الفرسان أربعةُ آلافٍ فشرع أهلُ المدينة في قتالهم مِن الأسوار بالمدافع وبنادق الرَّصاص والسِّهام، وكان في ذلك اليوم تقدَّمت رجالٌ إلى القتال وظهرت منهم شجاعة كبيرة، منهم رجل اسمه "الحاجّ باشا" وآخر اسمه "الحاجّ مامي" وآخر يقال له القايد "أخضر" وآخر يقال له "الحاجّ بكير"، جاوزوا المحل الذي يقال له "رأس تافورة" وأنزلوا محلتهم فأحرثوا تلك الوعور كلَّها[2]، ودام القتال بالمدافع إلى الليل مِن الجانبين.

فلمَّا كان يوم الثلاثاء في آخر الليل أرسل الله ريحًا عاصفًا، فَقَطَّعَتْ

(1) - في (س) الحمامة. والأصح ما أثبت في المتن لأن الحامة علم على مكان موجود إلى اليوم بمدينة الجزائر ضمن القطاع الإداري لبلدية بلوزداد.
(2) - في (ب) "زاوجوا المحل الذي يقال له رأس تافورة وأنزلوا محلتهم بأحدث تلك الدعور كلها"

حبال أجفانهم، ونشروا صواريهم[1]، خوفاً مِن الهلاك، وسيقت السَّحاب مثل الجبال[2]، وأُمطِرت السماء بمطر كالطوفان، والبحر في زيادة، والأمواج تتراكم كالجبال فغرقت كثير أجفانهم، وعَطِبَتْ على السَّاحل سُفُنٌ كثيرةٌ، فعند ذلك دهش الكفَّارُ كلُّهم، خصوصاً مَن نزل البرَّ منهم، فإنَّهم خُيِّلَ لهم أنَّ القيامة قد قامت مِن كثرة الرِّيح والأمطار والصَّواعق والرُّعود، فلم يقدروا على الرَّمي، ولو بمدفعٍ واحدٍ، ولا مكحلة[3].

ولماَّ رأى "حسن آغا" ما هيَّأَهُ الله لأهل الجزائر، خرج في جماعةٍ مِن عسكره وأهل المدينة طالبين للنَّصارى، فوقع بينهم قتالٌ عظيمٌ، ودافع النَّصارى عن أنفسهم دفاعاً قويًّا، وكان مع الطَّاغية عشرون ألفاً لم يباشروا قتالاً، فهجم عليهم المسلمون[4]، وقاتلوهم قتالاً عظيماً مقدار ساعتين، وتأخَّر المسلمون قليلاً إلى المدينة بعدما وَفَّوا ذلك اليوم حقَّه مِن جهاد الكفَّار، فدخلوا المدينة وألوية النَّصر تخفِق عليهم، ومات في هذا اليوم من الكفار أزيدَ من أربعةِ آلافٍ، واستشهد من المسلمين مائتان، ختم الله لهم بالسَّعادة.

---

(1) – في (س) نشروا صواريها. والصارية: هي الخشبة المعترضة في وسط السفينة. ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، مادة (ص ر ي).

(2) – في (س) وساقت السّحاب أمثال الجبال.

(3) – مسدس تقليدي يستعمل عند وجود مسافة صغيرة تفصل بين المتنازعين.

(4) – سقطت من(س) ووردت في (أ).

ولمَّا رأى الكفَّارُ ما حلَّ بهم في هذا اليوم، مع ما فيهم من البرد وتراكم الأمطار الغزيرة وعطب مراكبهم تضاعف حزنهم، واشتدَّ قلقهم، وتحقَّقُوا أنَّهم تورَّطُوا في ورطةٍ عظيمةٍ.

وكانوا وقت نزولهم إلى البرِّ لم يُنزلوا معهم إلاَّ شيئاً قليلاً ظنًّا بهم (كذا) أنَّه لا يحول بينهم وبين سفنهم حائلٌ، ولمَّا نزل بهم هذا الطُّوفان العظيم، وهاجَ البحرُ ذلك الهيجان العظيم[1] حِيل بينهم وبين الزَّاد، فَبَقَوْا ثلاثةَ أيَّامٍ بالجوع القاهر حتّى آل بهم الأمرُ إلى أن ذبحوا خيولهم وأكلوهم(كذا)، ودخلت أربعةٌ مِن أجفانهم إلى المرسى، وَخُلِّصَ مِن أسارى المسلمين ألفاً وأربعمائةٍ، خمسون مِن التُّرك، والباقي مِن أهل الجزائر وتونس، وما بقي مِن السُّفن فإنَّهم لمَّا رَأَوْا ما حلَّ بهم مِن الغرق والعطب، فحاولوا على الدخول (كذا) إلى المرسى فلم يقدروا على ذلك، فتوجَّهُوا إلى جون "تامنفوس"، والحال على ما هو عليه من تراكم الأمطار وهيجان البحر.

ولمَّا رأى الطَّاغيةُ ما حلَّ به مِن هذه المصيبة العظيمة حيث عَكَسَ الله آمَالَهُ وَنَكَّسَ أحواله ولم يظفر من أهل الجزائر إلاَّ بهذا الهلاك الذي يُشاهده، وصار في الحقيقة هو المَحْصُورُ، فعند ذلك ترك سائر ما نزل به مِن الأثقال والآلات الحربية وتوجَّه بمن معه مِن العسكر المخذول إلى

---

(1) – في (س) الفخيم.

ناحية "تامنفوس" طالباً للنَّجاة بنفسه، ليتوصَّل إلى الرُّكوب في أجفانه التي هنالك، وحين عَلِمَ أَهْلُ الجزائر بِفِرَارِ الطَّاغية خرجوا في أثره مِن المدينة يصفقون[1] أخبيتهم بسيوفهم، ويقتلونهم في كلِّ سَهْلٍ ووعرٍ[2]، إلى أن ألجئوهم إلى "واد الحراش" وكان حاملاً مِن كثرة المطر المتراكم، فلمَّا أرهقهم المسلمون بالطَّلب رَمَوْا أنفسهم في الوادي، فغرقت عامتهم، وأمَّا الطَّاغية فإنَّهم صنعوا له جسراً على الوادي من صواري أجفانهم المتعطّبة، فجاز عليها إلى عدوة الوادي الأخرى بعد جُهْدٍ جَهِيدٍ، ومشقَّةٍ عظيمةٍ، وكان عِدَّةُ القتلى بسيوف المسلمين تزيد على اثني عشر ألفاً، فيُقال أنَّ فرائس الكفَّار وفرائس خَيلهم ملأت ما بين بلاد الجزائر وتدلس شرقاً، وكذلك "شرشال"[3] غرباً لاَ يُحْصِيهِم إلاَّ مهلكُهم.

وما وصل اللَّعين إلى بلاده إلاَّ باثني عشر غُراباً[4]، وكان عدد السُّفُنِ عند قدومه سبعمائة وخمسين جفناً، والعسكر سبعين ألفاً، ومدَّة مَكْثِه

(1) – أي يحدثون صوتا عاليا بضرب سيوفهم بالأخبية.

(2) – في (س) في كل نجد وغور.

(3) – مدينة تقع على الساحل الجزائري أسسها الفينيقيون كانت تسمى أيول، اتخذت كعاصمة في عهد يوبا الثاني، يحيط بالمدينة أراضي فلاحية جد خصبة. عن شرشال انظرُ:

– الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 258.

– أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص283.

(4) – من أنواع المراكب البحرية سريعة الحركة وخفيفة، تسير بأربعة وعشرين مجدافا،

بالجزائر سبعةُ أيَّامٍ.

وسافر اللَّعين إلى بلاده بخيبة[1] كبرى، قيل بعد وصوله إلى بلاده لم يَمْكُث إلاَّ مدَّةً قليلةً، فترك سلطنته ودخل الكنيسة وصار راهباً.

ثم إنَّ "حسن آغا" كتب كتاباً إلى الدِّيوان العالي يخبرهم كيف فعل الله لأهل الجزائر بِعَدُوِّهم، وعيَّن غليوطةً وجَّهها بهذا الكتاب إلى حضرة السُّلطان، وعند وصولها "القسطنطينية"[2]، توجَّه الرَّسول إلى خير الدِّين باشا، وأَعْلَمه بما وقع بالجزائر في هذه القضية، فأخذه خير الدِّين وأوصله بيده، وبالغ في الثَّناء على "حسن آغا"، فحين ذلك وجَّه السُّلطان بِخُلْعَةٍ[3] عظيمةٍ سنيَّةٍ، وأمرٍ كريمٍ[4] يتضمَّن نيابته على

وفي كل مجداف أربعة رجال، وعرف هذا النوع من السفن بالغراب؛ لأنّ مقدمته تشبه رأس الغراب. انظر: الزهار: ص31.

– وانظر: مصطفى بن عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص330.

(1) – في (س) بأخبيته.

(2) – هي مدينة اسطنبول حاليا في تركيا.

(3) – الخلعة من الثياب ما خلعته فطرحته على آخر، وهي لباس مؤلف من جبة مطرّزة وعمامة وطيلسان وسيف، كان الخلفاء يمنحونها لكبار رجال الدولة والمقربين إليهم ممن أدوا للدولة خدمات مميزة، وتعرف الخلعة والسيف وفرمان التعين في الجزائر برموز الولاية. انظر:

– بن منظور الإفريقي: المرجع السابق، مادة (خ ل ع).

– مصطفى بن عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 165.

(4) – وهو ما يعرف بالفرمان أو قرار التعين في الوقت الحالي.

"الجزائر" مِن قِبَل السُّلطان، وأنَّه مِن جملة وزرائه، ووجَّه بخلعٍ لأعيان الجزائر، ودعا لهم بالخير، وأمَّا الرَّسول والذين معه فإنَّ السُّلطان واصل الإنعام وأجزل لهم الجوائز والبشارات إلى أهل المدينة.

فحين وُصولِ الغليوطة إلى الجزائر، واجتمعوا (كذا) مع "حسن آغا" فنصَّبَ ديواناً عظيماً قرأ فيه أمر السُّلطان الذي بعثه، ولَبِسَ فيه الخلعة التي بعثت إليه، وكذلك لَبِسَ أعيان الجزائر التي أرسلت إليهم، فدعوا للسُّلطان بطول البقاء والنَّصر، وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حُلَلِهَا[1] مِن رخاء الأسعار وأمان الأقطارِ، ولم يبق لهم عدوٌّ يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارقِ الأرض ومغاربها، وبقي رعبُ المسلمين في قلوب الكفَّار مدَّةً طويلةً.

وكان قدوم الكفَّار في اليوم الثاني مِن نوفمبر مِن الشُّهور الرُّومية، اللَّهم ارحم "حسن آغا" ومَن وقف معه.

الواقعة الرابعة

سنةَ 1071 إحدى وسبعينَ وألفٍ [1660] في دولة "رمضان[2] بولك باشا"[1]، أتت عِمارةُ الإنكليز بثلاثٍ وعشرينَ سفينةً كباراً، وأراد أن يُجدِّدَ الصُّلْحَ الذي بينه وبين أهلِ الجزائر، وشرط شروطاً مِن جملتها:

(1) - في (ب) حيها وفي (س) حليها.

(2) - يعرف باسم يورك رمضان تولى الحكم خلفا لأول آغاوات الجزائر خليل آغا وكان

1- أنَّ سفائنَ الإنكليز إذا تلاقت مع سفائنِ الجزائر تجوز سفائن الجزائر مِن تحت ريحها.

2- وإذا ظهر منها علامةُ الإنكليز لا يُفتِّشها أهلُ سفينة الجزائر، بل يُخْلُون سبيلها.

فأجاب أهلُ الجزائر أنَّ هذا شيء لا يمكن، وإذا أراد أن يكون مصطلحاً معنا، فيكون الصُّلح على الشُّروط التي كانت مِن قبل، وإلاَّ فلا صُلح بيننا وبينه، وإذا أراد شيئاً يَفْعَلْ بنا فعليه مباشرته بِقَدْرِ جُهده وطاقته، وطردوه.

ذلك سنة 1071/ 1660 قتل بعد سنة من توليه الحكم بسبب سنه لقانون قسمة أسلاب البحر بين رياس البحر والحكومة، يوجد نوع من الخلاف بين المؤرخين فيمن خلفه بين من يرى أن شعبان آغا هو من خلفه في منصب أغاوية الجزائر، ومن يرى بأن إسماعيل آغا هو من خلفه، والرّاجح أن شعبان آغا هو من خلفه. انظر:- حسين بن رجب شاوش: تقيدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، ص 54.

- عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص 160، 162.

(1) - كلمة مركبة من قسمين: الأول بلك أو بلوك وهو مصطلح عسكري يقصد به في العهد العثماني الوحدة العسكرية أو كما يقول المزاري الجماعة، يتراوح عدد أفراد هذه الوحدة بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد، والقسم الثاني من الكلمة وهو باش(Paş) والتي يقصد بها في اللغة العثمانية الرأس أو الرئيس أو المقدَّم، ويرى هايدو أنها تقابل رتبة النقيب، فالكلمة ككل يقصد بها رئيس الوحدة العسكرية، ارتبطت أهمية البلوك باشي بعدد الأفراد في الوحدة التي يقودها. انظر:

- Diego de Haèdo : Topographie et histoire générale d'Alger, P72.

- مصطفى بن عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب، ص 85،86.

فمكث اللَّعينُ منتظراً لجوابٍ يوافق عرضه ثلاثةً وعشرينَ يوماً، فحين أيس[1] اللَّعين مِن رجائه اصطفَّ جفونه تِجَاه الجزائر، وشرع بالرمي على الأبراج وإلى المدينة.

فقابلهم أهلُ الجزائر مِن الأبراج ومِن سور المدينة، ودام القتال بينهم في ذلك اليوم إلى المغرب، فعند ذلك أقلعت سفائن اللَّعين مخاطفهم وحلُّوا أقلاعهم، وتوجَّهوا إلى بلادهم خائبين خاسرين، ولم يمُت في ذلك الحرب إلاَّ رجلٌ واحدٌ انجرح (كذا) ومات بعد ثلاثةٍ وعشرينَ يوماً، وأمَّا الإنكليز الملاعين فقد مات منهم أكثر مِن مائة، وسفينة القيود سقطت ما وصلت إلى مايورقة إلاَّ بشقِّ الأنفس، وفي ذلك الوقت كان في "الجزائر" مِن السَّفائن التي تحل الطَّاقة مِن الأسفل اثنتان وأربعون سفينة، فعند ذلك شرعوا في شحم[2] (كذا) السَّفائن وأخرجوهم إلى البحر[3]، وباشروا في أخذ سفائن الإنكليز، فلم يمض ستة أشهر إلاَّ [4] وفي مرسى "الجزائر" اثنتان وستون مركباً من

(1) - أي بمعنى يأس وقنط. انظر، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة (أي س)

(2) - لعل الأصح: فعند ذلك شرعوا في شحن

(3) - في (ب) السفن وفي (س) السفر.

(4) - سقطت من (ب) و(س) ووردت في (أ).

"الإنكليز"، والحاصل[1] أنَّ أهل الجزائر كانوا يفرِّقون أكثر الغنائم بعد أخذ النَّصارى على المجاهدين والفقراء والأيتام[2].

ودام هذا الحرب إلى أن جاء الإنكليز إلى الجزائر [وصار يحلل على الصلح، فلم يقبلوا منه حتى قبل شروط أهل الجزائر وأعطى لأهل الجزائر][3] خمسة عشر قنطاراً مِن البارود واثني عشر ألفاً مِن الكور.

وفي هذه الحرب إلى أن أصلح اللَّعين مع أهل "الجزائر"، ضيَّع اللَّعين [لأهل الجزائر] سبعة عشر جفناً، وقد ضيَّع أهلُ "الجزائر" مِن سفائن الملاعين "الإنكليز" أكثر مِن خمسمائة جفنٍ، والحمد لله، ورحمة الله على هؤلاء الرِّجال رحمةً واسعةً.

الواقعة الخامسة

وفي سنة 1093 ثلاث وتسعين وألفاً [1682] في إمارة "بابا حسن"[4]، في أوَّل شهر رجب قدمت عشرة أجفان كبار، وخمسة عشر غربة مِن

(1) - في (س) والحال

(2) - في (س): يفرقون أكثر الغنائم بعد أخذ النصارى ورفع أرفع متاعهم

(3) - سقطت هذه العبارة من (أ) ووردت في (س).

(4) - هو "حسن شاوش" تولى الحكم خلفا لصهره حسن قبطان التركي سنة (1093/ 1682) اغتيل بعد فترة وجيزة من حكمه لم تتجاوز السنة وقطع رأسه بالتحديد في رجب(1094/ 1683) خلفه الحاج حسين ميز ومورطو. انظر:- ابن المفتي، تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، ص 56.

الفرانسيس إلى الجزائر على طريق محاصرتها، ورَسَوْا تِجاه الجزائر بعد أيّام قدمت العمارة الكبيرة، وهي خمسةَ عشرَ جِفْنًا كباراً، وخمسةَ عشر غربةً، وخمسة متاع الحويلار متاع البومبة، فأوّل ما بدأ اللّعين[1] بالحرب مشي بسفائنه وغربته إلى مدينة "شرشال" وحاربهم، وقابل اللّعين "شرشال" بالمدافع بقدر طاقتهم، فلم يصل اللّعين إلى طائلٍ مِن أهل "شرشال" ولم يمت مِن أهل "شرشال" ولو نفس واحدة، ومات مِن الملاعين أكثر مِن ألفي فارس.

وفي أثناء ذلك عَمَّرُوا من أهل الجزائر غليوطةً، وبعثوها إلى السُّفن ففي أربعةِ أيّام جاءت بغنيمة شيطيه[2]، فيها خمسون كافراً وفيها كاتب القوم و[آلة الحرب][3] وخاصة مأكلهم، فبذلك حصل للمسلمين فرحٌ عظيمٌ وللملاعين خلاف ذلك.

ومكث الملاعين على تلك الحالة إلى اللّيلة الثالثة مِن شعبان، فعند نصف اللّيل قَرَّبُوا الحويلار إلى الجزائر، ورَمَوْا قدر مائة وخمسين بومبة، كلّ بومبة في الثقل قنطارٌ واحدٌ ، وهدَّموا بها قدر مائتي دار،

- زامباروا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص128.

(1) – قائد هذه الحملة هو دوكاسن.

(2) – في (س) شهطية والصحيح شطية ويقصد بها السفينة التي تستعمل بالقرب من الشاطئ.

(3) – بياض في النسخ (ب) و(س).

وسقطت منها بومبة واحدة في الجامع الجديد، وأخرى في الجامع الكبير، واستشهد مِن المسلمين قدر عشرين نفسًا، وبعد ليلتين مِن ليلة الجمعة، قَرَّبُوا الحويلار أيضًا، ورَمَوْا ثمانيةً وسبعينَ بومبةَ، ولم يصل للمدينة غير ثلاث بومبات، وانهدمت بها حانوت واحد، ودار واحدة وحمام، وبعد هذه الليلة قربوا لها مرارا، فلم يصل منها شيء للجزائر، فعند ذلك رجع الملاعين إلى بلادهم خائبين خاسرين، ومات مِن الملاعين خلقٌ كثيرٌ خصوصًا مِن المرضى، والحمد لله ربِّ العالمين.

الواقعة السادسة

وفي سنةِ أربعٍ وتسعينَ وألفٍ [1094هـ/ 1683م] في إمارة بابا حسن في أواسط صفر الخير، أتت ثلاثُ جفانٍ صغارٍ متاع الفرانسيس، وطلبوا الصُّلح من أهل الجزائر وبابا حسن المذكور لم يمل إلى الصُّلح قطعًا، وامتنع امتناعًا كُلِّيًا.

فبعد ثلاثةِ أشهرٍ جاءت ستُّ سُفُنٍ كبارٍ مِن سفائنهم تدور[1] تِجاه الجزائر قدر عشرين يومًا، فعند ذلك أتت عمارتهم الكبيرة، وصارت الجملة ستين جفنًا بين صغار وكبار، ثلاثون غربة وسبعة مِن الحويلار متاع البومبا.

(1) – بياض في (ب) و(س).

ففي اللَّيلة الأولى مِن رجب الفرد رَمَوْا قدر ستينَ بومبة، وفي اللَّيلة الثانية منه رَمَوْا إلى البلد وإلى المرسى قَدْرَ مائةٍ وعشرينَ بومبة، وفي هاتين اللَّيلتين لم يمت أحدٌ مِن المسلمين بالبومبة، وبمدافع الأبراج مات كثيرٌ مِن النَّصارى، وسقط في اللَّيلة الثانية بومبتان في دار الحاكم "بابا حسن" التي في باب الجزيرة وانهدمت بها عرصتان مُذَهَّبَتان في تلك الدَّار، فعند ذلك دخل الخوفُ في قلب بابا حسن فمن ساعته بلا مشورة أحد طلب الصُّلح مِن النَّصارى، وطلب أُسارى المسلمين الذين عندهم، فأجاب اللَّعين بأنَّه لا يعطي أحداً مِن أُسارى المسلمين: «ولكن أصالح معكم إذا أعطيتموني جميع ما عندكم مِن أُسارى الفرنسيس ومصروف[1] العمارة، وهي ثلاثمائةِ ريالٍ متاع الميزان، وقبلتم جميعَ ما أشترط عليكم.»

وكان عدد أسارى الفرنسيس الذين في الجزائر خمسمائةٍ وخمسونَ أسيراً[2]، أصلح "بابا حسن" مع الفرنسيس على هذا الشرط.

فمن ساعتهم الملاعين رفعوا أسراهم على العجلة، والحال أنَّه لم يكن مِن أهل الجزائر راضيـًا بهذا الصُّلح غير هو بنفسه، وهذا الصُّلح الصَّادر منه وقع مخالفـًا لسيرته السَّابقة؛ لأنَّه كان رجلاً شجاعـًا عاقلاً مُنصفـًا، وكان محبوبـًا عند أهل الجزائر، وصار عندهم لو وجَدَهُ أَحَدُهم لقتله شرَّ قتلةٍ.

(1) - المقصود هاهنا النفقات التي أنفقت لتجهيز الحملة.

(2) - يذكر ابن المفتي أنّ عددهم بالتَّحديد كان 750 أسيرا.

[اغتيال بابا حسن وتنصيب ميزومورطو]

ففي اللَّيلة الثالثة والعشرين تقاعد له في الطَّريق ثلاثةٌ أو أربعةٌ مِن التُّرك فقتلوه على أسوء حالة، فعند سماع المسلمين بموته فرحوا فرحـًا شديداً، ونصَّبُوا مكانه باتِّفاق أهل الحلِّ والعقد كبيرهم وصغيرهم، الحاجّ "حسين ميزومورطو"[1] وكان رجلاً مُدبِّراً حليمـًا شُجاعـًا سخيًّا، يُحبُّ العلماءَ وأهل الصَّلاح، فعند سماع اللَّعين بموت "بابا حسن" اهتمَّ اهتمامـًا كبيراً.

فعند ذلك بعث ميزومورطو إلى اللَّعين: «**إن أردت الصلح معنا فأعطنا أُسارى المسلمين الذين عندك**».

فأجاب اللَّعينُ بأنَّه لم (كذا) يعط أحداً من أُسارى المسلمين: «**وإن أردتم الصلح معنا فأدوا إلينا الثلاثمائةِ ريالٍ التي اشترطتها عليكم**».

(1) - يرجع أصله إلى إيطاليا، تولى الحكم خلفا لبابا حسن سنة (1094هـ/ 1683م) يعدّ أوّل من جمع في يديه بين منصب الداي والباشا، تخلى عن منصبه كحاكم للجزائر سنة (1100هـ/ 1689م) حيث عُيِّن كقبطان دوريا في القسطنطينية وخلفه في حكم الجزائر الحاج شعبان. انظر:

- حسين بن رجب شاوش: تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، ص 56، 68.
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص140.
- زامباروا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص 128.

فحين بلغ هذا الخبر إلى "ميزومورطو" أجاب بأنَّ اللَّعين إذا لم يعط أسارى المسلمين فلا صلح بيننا وبينهم، وإذا أراد اللَّعين أن يمكر بنا فعليه بما يقدر مِن الحيلة والمكر.

فعند بلوغ هذا الخبر للعين اغتاظ، وأمر مِن ساعته بتهيئة الحويلار وبدأ برمي البومبة، وفي تلك اللَّيلة رَمَوْا ثلاثمائةٍ وخمسينَ بومبةٍ، وبعد تلك اللَّيلة صاروا يرمون ليلاً ونهاراً، ودام لهم هذا الفعل -لعنهم الله- ثلاثَ وعشرونَ يوماً[1]، ورَمَوْا في تلك الأيَّام خمسة آلاف بومبة، وانهدمت بها ثلاثمائة دارٍ، ومات مِن المسلمين قدر أربعين نفسا رحمة الله عليهم.

الواقعة السابعة

ثمَّ في سنة 1095 خمسٍ وتسعين وألف [1684] في شهر ربيع الأوَّل أتت منهم سفائن كبار ومع واحد هدية[2]، وصاروا يُحللون على الصُّلح أمَّا ميزومورطو فلم يلتفت إليهم أصلاً، وبَقَوْا على هذه الحالة قدر شهر ونصف وميزومورطو على الإباء، واللَّعين أعطى هدايا كثيرة للأعوان حتَّى صاروا بسببها يُراودون ميزومورطو على الصُّلح و[يلحُّون عليه][3]،

(1) - والصحيح ثلاثة وعشرين يوماً.

(2) - بياض في (ب) و(س).

(3) - سقطت هذه العبارة من (س) ووردت في (أ).

ففي آخر الأمر أجابهم: « **بأنَّكم إذا أعطيتم أُسارى المسلمين الذين عندكم من التُّرك وغيرهم -وكان الكلُّ أكثر من أربعمائة- نصطلح معكم وإلاَّ فلا**» فأجاب اللَّعين إلى ذلك ورضي به.

ففي أوَّل جمادى الأولى اصطلح ميزومورطو معهم على هذا الشَّرط، وعيَّن مِن عنده ثلاثةَ نفرٍ يمشون معهم، ويأتون بكلِّ مَن وجدوه بها مِن أُسارى المسلمين، وهم "الحاجّ جعفر" و"مصطفى أوض[1] باشي"[2]، و"شاطر باشا"، فعند وصولهم إلى فرنسا مكَّن النَّصارى هؤلاء النَّفر كلَّ مَن وُجِدَ في فرنسا مِن أُسارى المسلمين، وكان عددهم أربعمائة واثنتي عشر.

فلمَّا بلغوا بهؤلاء الأُسارى إلى الجزائر قال ميزومورطو للعين -أي الرُّومي-: «**هؤلاء الأُسارى المسلمين قبالة الأُسارى متاع النَّصارى الذين أخذتهم من الجزائر بالغدر والتَّلبيس، وأنا اصطلحت معك على أن تأتيني بأربعمائةِ أسيرٍ مِن أُسارى المسلمين الذين بأيدي الكفرة، فإن أتيتني بهم فالصُّلح نافذٌ وإلاَّ فلا صلح بيننا وبينكم، والذي يظهر لك فافعله**».

(1) - بياض في (ب).

(2) - أوض باشي رتبة عسكرية في العهد العثماني تعادل رتبة الملازم في مطلع القرن العشرين، ألغي هذا اللقب مع إلغاء الإنكشارية.

- انظر: مصطفى بن عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 56.

فعند ذلك اغتاظ اللَّعين وقال: «**هذا غدرٌ، والغدر لا يليق بالسَّلاطين**» فأجابه ميزومورطو بأنَّ: «**الغدرُ سبق منك وأنا ما غدرتك، وغاية الأمرِ فزت بحقنا فأخذته**».

ثم إنَّ اللَّعين أراد نقض الصُّلح لكن لم يقدر على الأقدام عليه، ففي آخر الأمر تحمَّل اللَّعين أن يأتي بأربعمائةِ أسيرٍ مِن أُسارى المسلمين، وتمَّ الصُّلح على ذلك الشرط، ثمَّ توجَّه هؤلاء النّفرُ الثلاثة إلى فرنسا مرَّةً أُخرى، وَأَتَوْا بأربعمائةٍ من أُسارى المسلمين.

أيُّها المطَّلع على الأحرف، فانظر إلى سياسةِ[1] ميزومورطو وإلى رجوليته-رحمة الله عليه-.

الواقعة الثامنة

وفي سنة(1184هـ) أربعِ وثمانينَ ومائةٍ وألفٍ[1770م]، يوم الأحد ثامنُ يوم مِن ربيع الأوَّل وهو العاشرُ مِن يونيو مِن شهر الرُّومي جاء صاحبُ النَّاظور[2] من بوزريعة بأنَّه رأى إحدى عشر جفناً بسنجاق[3]

(1) – في (س) ظرافة.

(2) – يقصد صاحب المنظار وهو اسم يطلق على من تكون مهمته الحراسة في أبراج المراقبة.

(3) – ذكر شمس الدّين سامي أنّ أصل الكلمة (صانجمق) تحولت إلى (صانجاق) وتُطلق إمَّا على العلم أو الراية أواللواء، كما تطلق على التقسيم الإداري لمناطق الدولة العثمانية الذي يضم مجموعة مِن الأقضية أوالمدن بدوره. انظر:

دينمرك (كذا)، ومع كون الرِّيح مخالفًا لهم بَقَوْا بور الدِّيار[1]، ولم يصلوا إلى الجزائر إلاَّ يومَ الثُّلاثاء بعد الزَّوال، فعند ذلك رَسَوْا تِجاه برج السَّردينة[2]، وحاكمُ الوقت محمَّد باشا المكروي[3]، لم يلتفت إليهم أصلاً، ونبَّه على الحاكم الذي في المرسى عند فَراغهم مِن صلاة العصر أن يطلقوا مدافعهم بالكورة[4] إلى سفونهم(كذا)، وينصِّبُوا

- شمس الدِّين سامي: قاموس تركي مادة (س ن ب). ص737.

(1) – أي خارج الديار وبعيدا عنها، يذكر عبد الرحمان الجيلالي أن هذه العمارة كانت تحمل معها راية السلام ولهذا لم يتعرض لها أهل الجزائر، وفي غفلة منهم وفي اليوم الرابع من إرسائها شرعت في رمي المدينة بالقنابل دون سابق إنذار فرد عليها أهل الجزائر بالمثل.

(2) – يذكر توفيق المدني أن سبب تسميته بهذا الاسم هو وجود رسم منحوت على حجر بابه عبارة عن سمكتين من نوع السردين، وهو على ما يذكر لايزال قائما إلى اليوم براس المول في مرسى الجزائر القديم. انظر: أحمد الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص 38.

(3) – هو محمد عثمان باشا تولى الحكم خلفا للدّاي بوصباع سنة (1179هـ/ 1765م)، اشتهر بعدله وانصافه والتزامه بالأحكام الشرعية وحبه للجهاد، وزهده في الدنيا، قام ببناء العديد من الأبراج في مدينة الجزائر لرصد تحركات النصارى، كان له السبق في صناعة اللنجور الذي استطاع بفضله رد جميع الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر في فترة حكمه، أوصى للحكم من بعده لحسن الخزناجي، توفي ليلة الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة (1205هـ/ 1790م) للتفصيل أكثر انظر:

- أحمد الشريف الزهار: المصدر نفسه، ص 36- 38.
- عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص 235.
- أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766/ 1791) ص، 101، 102، 119، 154.

(4) – يقصد بها غالبا القذائف والقنابل.

السَّناجق على الأبراج، واشتغلوا بإحضار العُدَّة ووضع المهايرز متاع البومبة والمدافع في المحل الذي يناسب، مِن جملتها أنَّهم صنعوا مِتْرَاسًا جيِّداً على المحلِّ الذي يقال له رأس العمارة، ووضعوا هنالك مدفعًا مِن أربعة وعشرين ومهرازين.

وفي اليوم الثالث عشر مِن ربيع الأوَّل يوم الجمعة بعد العصر قَرَّبَ اللَّعين بالمخاطف سفائنهم، وقرَّبوا الحويلار كذلك بالمخاطف قُدَّام السَّفائن؛ لأنَّه كان له زَوْجٌ مِن الحويلار، وخوفًا مِن الفراغط[1] متاعنا كان لا يقدر على إبعادهما مِن السَّفائن؛ لأنَّ محمَّد باشا -المذكور- كان وعدَ لمن يأتي بالحوي أن ينقل (كذا) ثلاثةَ آلافِ دينارٍ، فلذلك كان الرُّؤساء متاع الفراغط يحتالون عليهم، فقبل الغروب في هذا اليوم أطلقوا ثلاثة أو أربعة مدافع بالكور، وكانوا جعلوا ذلك إمارة للحويلار ليبد أو (كذا) بالرمي، فعند ذلك بدأ الحويُّ الذي من جهة الغرب بالرَّمْيِ، فرمى بومبةٍ واحدةً ونحن ننظرُ إلى أي محلٍ تسقطُ، فسقطت على بعد مِن البرِّ قدر رمي مدفعٍ، ثمَّ بدأ الحويُّ الذي مِن جهة الشرق، ثُمَّ بدأ البومبجي[2]

(1) – الفراغط أوالفرقاتة أوالفرقاطة بالتركية *(Firkateyn)* من أكبر سفن الأسطول العثماني كان يتواجد على متنها أكثر من ثمانين بحارا.

– سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص 163.

(2) – *(bombacı)* كلمة عثمانية تنقسم إلى قسمين: *(bomba)* وتعني قنبلة و(cı) أداة تستعمل للدلالة على امتهان الشخص للكلمة التي قبلها، فيكون معناها صانع القنابل أو يقابلها في العربية المدفعي.

بالرَّمي، وكان لنا تِجاههم مرازان مُهَيَّئَان، فحين رأى اللَّعين رمي البومبجي لم يقدر على تقريب الحويلار لجهتنا، ولو بقدر شبر، خوفًا مِن البومبة متاعنا.

ودام الرَّمي هكذا مِن الجانبين إلى الصَّباح، ورمى اللَّعين في هذه اللَّيلة خمسةً وأربعين بومبةً، وقرب الصُّبح أوصل واحد البومبا إلى قُرْبِ البرِّ لكن سقطت في الماء وتفرقعت في الماء، وواحد البومبا متاعنا تفرقعت فوق الحوي[1] متاعهم؛ لأنَّ رمينا كلَّه كان إلى الحويِّ[2]، فعند ذلك دخل الرُّعبُ في قلوبهم بحيث دهِشُوا ولم يهتدوا إلى شيء أصلاً، فعند الصُّبح رمى أكثرَ مِن ثلاثمائةِ مدفعٍ بالكورة إلى الهواءِ، وليلة الأحد لم يَقْربوا كما قربوا ليلة السبت، ورَمَوْا في تلك اللَّيلة بقدر ثلاثين بومبةٍ، ورَمَوْا أكثر مِن ثمانمائةِ مدفعٍ قبلها، وبعد ذلك مكث اللَّعين مِن غير حركةٍ إلى يوم الخميس، وهو التَّاسع عشر مِن ربيع الأوَّل، رأى السَّيدُ "محمَّد باشا" مِن قصره أنَّ اللَّعين بعث صندلاً[3] بسنجاقِ[4] الأمان إلى البرِّ فبعث إلى قائد المرسى بأن لا يترُكَه أن يدخل إلى

(1) – بياض في (ب) و(س).

(2) – بياض في (ب) و(س).

(3) – يُكتب أيضًا سندل وبالتركية الحديثة *(Sandal)* أصل الكلمة فارسي أُطلق على السُّفن الصغيرة سريعة الحركة. انظر:

– مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 259، 260.

(4) – أي حاملاً لراية السَّلام.

المرسى، ولا أن يطَّلع إلى البرِّ، وإذا أراد أن يعطيهم كتاباً أن لا يأخذوه، فمِن ساعته خرج رايس المرسى مستقبلاً لصندل اللَّعين، قال رايسه[1]: **«هاك هذا الكتاب واذهب به إلى سلطانكم.»** فقال له رايس المرسى: **«لا أقدرُ على أخْذِهِ، لأنَّ سيدي نبَّهني كذلك(كذا)، وأنت لا تطلع إلى البرِّ، بل ارجع إلى سفينتِك، ونبَّهني أيضاً أن لا آتيه بكلامك، ولكن قال لي قل للرُّومي المرسول، قل بأنَّه(كذا) يقول لقائدهم[2] يُظهِر شَوْكَتَهُ.»** فعند ذلك رجع اللَّعين في الصندل مبخوساً منحوساً، فمكث اللَّعين على تلك الحالة إلى يوم الأحد، وهو اليومُ الثاني والعشرون مِن ربيعِ الأوَّل بعد طلوع الشَّمس بثلاث ساعات، فعند ذلك حلَّ قلاعه[3]، ورجع إلى بلاده خائباً خاسراً، وهذا من فضل ربِّي علينا، وكان مُدَّة مكثه ثلاثةَ عشرَ يوماً[4].

بعد ذلك بعث اللَّعينُ مِن مملكتهم أناساً أَعْطَوْا هدايا كثيرة وحلُّوا كثيراً، فعند ذلك طاب خاطرُ محمَّد باشا وشرط عليهم أشياءً كثيرةً، مِن جملتها أدَّوه أربعةَ مهاريزَ متاع البومبة لم يُرَ مِثْلُهَا في المتانةِ، اثنان منها قنطاران، واثنان مِن قنطار ونصف[5]، نفع الله بهذه العُدَّة أهل الإسلام إلى

(1) – أي رايس الصندل.

(2) – بياض في (ب) و(س).

(3) – في المخطوط قلوعه، والقلع شراع السفينة، وجمعها قلاع، والمقلعة من السفن العظيمة وسميت بذلك لأنها تشبه القلعة. انظر: – بن منظور الإفريقي: لسان العرب، مادة (ق ل ع).

(4) – أي أن هذه الحملة ارتحلت من ساحل الجزائر في 24/ جوان 1770.

(5) – كما ألزم بدفع خسائر الحرب والتي قدرت بـ 62 مليون فرنك، والتنازل عن 40 مدفع

يوم القيامة بحرمة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

الواقعة التاسعة[1]

وفي سنة (1189هـ) تسعةٍ وثمانينَ ومائةٍ وألفٍ [1775م]، يوم الاثنين الثامنُ والعشرون مِن ربيعِ الثَّاني في إمارة محمَّد باشا المكروي، وعند الزَّوال جاءت بلاندرة متاع دينمرك (كذا) خُبِرتُ بأنَّها كانت دخلت مرسى من مراسي إسبانيا، وبها كانت أكثر عمارة الإسبانيول، وجعلت

من الحديد وأربعة من البرونز، وخمسمائة قنطار من البارود و خمسين شراعاً. انظر:

– عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 242.

(1) – تعتبر هذه الحملة مِن أشهر الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر حيث حشد لها الملك الاسباني عمارة كبيرة قوامها ثلاثة وعشرون ألف رجل منهم ألف فارس وخمسمائة مركب ضمنها عشرين بارجة، ومثلها مِن المدمرات وثلاثمائة وأربع وأربعين باخرة شحن مزودة بمائة مدفع. (ووقفت على رسالة مخطوطة ميكروفيلم تقع في أربعين ورقة مصدرها المكتبة الوطنية النمساوية مكتوبة باللغة العثمانية للشيخ مصطفى شمسي أفندي بعث بها إلى دار الخلافة يؤرِّخ فيها ما حدث أعمل حاليا على ترجمتها وتحقيقها ونقلها للتركية ومنها إلى العربية) للتفصيل أكثر انظر:

– أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر، ص 41-44.

– الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود، ج 1، ص258.

– صالح زهر الدين: موسوعة المعارك العربية من الفتح إلى غاية 1968، تر مصطفى الطلاس ورياض تقي الدين، ط الأولى، بيروت، لبنان، دار الندوة الجديدة، 2000، ص 281-287.

-Devoulx A : Expédition d'O'Reilly d'après du document turc, in R-A (1858) volume N°03, PP 436-441.

-Bresnier L-J : Récrit indigène de l'Expédition d'O'Reilly, in R-A (1864) N°46, Année 8, PP 334-346.

سبب دخولي إليها لأخذ الماء وقلت لهم: «**أنّي كنت بالجزائر، فجاء الخبر إلى الجزائر بأنّ عمارة الإسبانيول قادمةٌ إليها، فمن ساعتي أخرجوني من المرسى، ولم يتركوني إلى أن آخذ الماء، والرِّيحُ خلّفني إلى هذا المكان وأنا قاصدٌ إلى مرسيليا.**» فأرسلني كبيرهم إلى أن آخذ الماء، ولا نمكث أكثر مِن ست ساعات[1] تُربط سفينتُك ولا تُترك تمشي قبل أن تخرج عمارتنا؛ لأنّنا خارجون غداً أو بعد غدٍ، وقصدنا إلى البربريا[2]. وسألوني عن أحوال الجزائر فأخبرتهم: «**بأنّ أهل الجزائر منبّهُون (كذا) إلى استعدادهم، وحشدوا مائة ألفٍ أو أكثر، وهم مُشْتَغِلُون بجمع العساكر وتحصين سواحلهم.**» فبذلك أمنوني وتركوني أن أخرج، والأن جئتكم؛ لأن أخبركم بأنّ العمارة موجودة مهيَّأةٌ للسّفر، وهذا اليوم هو اليوم الخامس مِن وقت خروجي من المرسى، وأنا أخبرتكم بما هو الواقع ولا بدّ أن أسافر لآن؛ لأنّ سفائن الإسبنيول إذا وجدوني بهذا المحل أو بقربه لطلبوني لأنّهم يُمْسُون هنا أو يُصْبِحُونَ.

وبعده محمّد باشا بعث إلى صالح باي[3] صاحب ناحية الشّرق؛ لأنّه

(1) – لعل من الأجدر القول: ولا تمكث أكثر من ست ساعات وإلا تربط سفينتك ولا تترك تمشي.

(2) – يقصد بها في العهد العثماني الجزائر عامة وبالخصوص السواحل الشرقية منها أو ما يعرف بمنطقة القبائل.

(3) – ولد في مدينة أزمير التركية سنة (1739م/ 1152هـ) عاش سنواته الأولى في مدينته ثمّ انتقل منها وسنه ستة عشر سنة إلى مدينة الجزائر بسبب قيامه بقتل أحد أترابه خطئا،

كان نبّهه أن لا يفارق ناحيةَ حمزة[1]، بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة، إذا أمرناه بالقدوم إلينا، وكذلك باي ناحية تطرة[2]، وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب [لأن الباي][3] كان مشتغلا بحفظ ناحية مستغانم وأيضا كان معترضا بجهة وهران، إذ شاع بأنّ اللّعين أراد أن

التحق في الجزائر بالجيش الإنكشاري فأُرسل في إحدى المرات إلى قسنطينة برزت هناك شخصيته الحربية وشجاعته القتالية في حملة الباي زرق عيونه على تونس، تزوج بابنت أحمد القلي باي قسنطينة، فقربه إليه وعيَّنه قائداً في منطقة الأوراس سنة (1762م) ثمَّ استدعاه أحمد القلي ليُعيّن في منصب خليفة الّداي، وبعد وفاة أحمد القلي عُيِّن صالح باي مكانه سنة (1771م/ 1185هـ) استمرَّ في شغل منصبه لمدَّة 22 سنة اشتهر فيها بسيرته الحسنة وسياسته المستحسنة، يرجع إليه الفضل في تشييد العديد مِن المنجزات مثل :مدرسة الكتاني، وقنطرة قسنطينة، وغيرها مِن الحمامات والبنايات، اغتيل على يد الباي بوحنك والذي خلفه سنة (1207/ 1792). انظر:

- محمد بن صالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستلائهم على أوطانهم، ص 75 – 85.
- أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر، ص 86 – 88.
- فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة في عهد صالح باي، دار مداد يوني فارسيتي براس، قسنطينة، الجزائر، ط ثانية، 2013، ص 136– 137.
- Cher Bonneau M-A : Constantine et ses antiquités trait de nouvelles annales des voyages, Février 1857, Imprime porthumot, Paris, P39.
- Dournon A: kitàb tarika Qusàntina, par EL hadj Ahmad El mobàrke, in R-A, Volume 57, 1913, P296-301.

(1) – هي مدينة البويرة حاليا.

(2) – في (س) طتيرة والصحيح التّيطري.

(3) – سقطت من(أ) و(ب) وأوردها في(س).

يبعث جماعة مِن عسكر وهران إلى الجزائر في البر، وربَّما يتمكَّن مِن ناحية تلمسان أو ناحية معسكر أو مستغانم[1]، ولم يكن الباي هنالك فلأجل ذلك لم يأت الباي بنفسه، بل أقام خليفته مقامه لأنَّ الخليفة كان ذا شجاعةٍ، عارفًا بمكائد الحرب، ومقتحمًا لأهواله، شديدَ البأس له جرأةٌ على الإقدام على العدوِّ، يقدم بنفسه، يفعل به في يومه ما لم يفعله به أمسه، صابراً للمقادر لكونه رجلاً شاطراً كما قال الشاعر:

كمي حرب يرى للعضب منه برق	ونشره وظنت بالشفع منها خلق
عداه لا تتقي وطيسه ينفق تاج	السلاطين ضرغم[2] الميادين
نقاد المساكين قهار الشياطين	سطا على كل قوم في ميادينه
وفاق كل عنود في مكائده	وساس كل جموح من فراسته
في المهد قد كان ينبى بمآثره	أخو جبين بتاج النصر مقرون

والرَّعيَّةُ كلُّها تحبُّه، فأجابوا هؤلاء الأمراء الثلاثة بالقدوم إلى الجزائر، مع وصول السيِّد "محمَّد باشا" ففي اليوم الأوَّل مِن جمادى الأولى[3]، وهو اليوم الأوَّل مِن الشُّهورِ الرُّومية ينيه[01/ أوت1775] أتى

(1) – مِن أكبر مدن الناحية الغربية اختطَّها يوسف بن تاشفين، عرفت المدينة أوج ازدهارها في عهد بني زيان. انظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 286.

(2) – في(س) ضيغم.

(3) – على خلاف بين المصادر، فهناك من يرى أن هذه الحملة كانت في اليوم الأول من جمادى الأولى كما يرى صاحب المخطوط، وبين من يرى أن الحملة كانت في التاسع من

صاحب النَّاظور مِن "بوزريعةَ" وقال أنَّ البحر كلَّه كاد أن يتغطى بقلاع السفائن، بحيث لم تُرَ بتلك النَّاحية إلاَّ القلاع.

فمِن ساعته أمر محمَّد باشا بإخراج مائةِ خباءٍ مِن الجزائر، في كلِّ خباءٍ ثلاثون نفراً مِن العسكر، وأمَّرَ على الأربعين منها السيِّد "حسن خزناجي" ونصَبَ تلك الأخبية بين "عين الرِّبَاط"[1] و"وادي الخنيس"[2]، وأمَّر على الأربعين الأُخرى "علي آغا" متاع أولاد العرب، فنصَّب تلك الأخبية بـ "وادي الخنيس" وبإخراج عشرين خباءٍ إلى ناحية "باب الوادي" وأمَّر عليها السيِّد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل، ولقلَّة الرِّيح لم تظهر سفائن الملاعين يوم الخميس، فعند الصُّبح، يوم الجمعة وهو اليوم الثَّامن مِن جمادى الثانية بدأ ظهور سفائنهم مِن الصَّومعات متاع الجزائر، ومع موافقة الرِّيح لهم بزيادة إلى وقت خروج النَّاس مِن صلاة الجمعة رست مقدماتهم بالحراش، وفي أثناء ذلك بدأ "الباي صالح" ينصب أخبية محلَّته تجاههم وراء "الحرَّاش"؛ لأنَّه كان جمعٌ مِن فرسان العرب وأجوادهم (كذا) ينيف على عشرين ألفًا، ومرت سفائن الملاعين بقرب أبراج الجزائر، بحيث لو رموا إلى الجزائر لكانت الكور تصل إلى

جمادى الثانية.

(1) – قال الزهار: هو موضع معد لنزول الأمحال والفيالق العسكرية، يبعد عن مقر الحكم بنحو من نصف ساعة، وعند توفيق المدني عير الرباط ساحة المناورات أو كما عرفت في أيام الاحتلال (الشان دي مانوفر)، وهي حاليا قرب ساحة الشهداء.

(2) – على قول بريني هي مدينة (الرويسو)، أمَّا الصحيح فهي مدينة الحميز حاليا.

الأبراج، وحين لم يرمِ الملاعين لم يرمِ أهلُ الجزائر أيضـاً بمدافع الأبراج كلّها، وكذلك المهاريز متاع البومبة كانت مهيَّأَة كلَّها والمدافيون (كذا) كانوا حاضرين، فحين لم يصدر الرَّمي مِن الملاعين ولمْ يُؤمر بالرَّمي لم يَبدأ هو كذلك.

ثمَّ في اليوم الثالث مِن جمادى الأولى، وهو يوم السبت وقت الضُّحى جاء الخبرُ مِن "بوزريعة" أيضـاً أنَّهم رَأَوْا جفنـاً أكثر مِن الطَّائفة[1] الأولى، وبِقُرْبِ الزَّوال ظهروا مِن الجزائر أيضـاً، ومِن كثرتهم لا يمكن إحصائهم، وذلك أنَّ وجه البحرِ كلَّه صار أَبيضَ مِن قِلاع الجَفْنِ، ورَسَوْا تِجاه الجفن الأوَّل، ففي اليوم الرَّابع مِن جمادى الأولى بدؤوا (كذا) بالفلائك[2] يَسْرَحون في البحر يمرُّ بعضُهم إلى بعضٍ، ولم ينقطع المرور إلى أن أظلم اللَّيل، وواحد البركنتي[3] صار يمشي قرب البرِّ مِن جهة عين الرِّباط، يقيس عمقَ البحر فَرَمَوْا مِن "رأس تافورة" مِدْفعين بالكورة، فلم تصل الكورة إليه، ثمَّ في يوم الاثنين والثُّلاثاء والأربعاء وهو اليوم الخامس والسَّادس والسَّابع مِن جمادى الأولى بقيت على هذا المنوال، لم يظهر مِن اللَّعين[4] جدال لكن حركته حركة الخروج إلى البرِّ؛ لأنَّ

---

(1) – سقطت من(أ) ووردت في (ب) و(س).

(2) – من الفُلك، تطلق على المراكب الصغيرة خفيفة الحركة ذات الشراع أو المجداف، لتزال هذه اللفظة مستعملة في اللهجة المحلية المغاربية بكثرة، وعرفت عندهم ب Faluca.

(3) – في الغالب هو نوع من السفن.

(4) – حضَّر لهذه الحملة وجمع قواتها الملك الإسباني شارل الثالث، أمَّا قائد الحملة والذي

الذين كانوا يقْدُمون إلينا مِن جهة الحرَّاش يقولون :«**إنَّ الكافرَ في غاية القرب إلينا، لأنَّنَا نسمعُ دَقْدِيقَه كأنَّه في وسطنا.**» ومُكْثُهُ كان خير إلينا؛ لأنَّ قبائل العرب كانوا يَقْدُمُونَ مِن كلِّ ناحيةٍ إلينا.

ويوم الخميس ثامن جمادى الأولى قبل الغروب بساعتين قَرَّبَ اللَّعين سفينةً مِن السَّفائن الكبار بالمخاطف بالطوبخانة[1] التي بالخنيس، وباشر يرمي فيه بالمدافع إلى أن أظلم الليل، قيل إنَّ عدَّة المدافع التي رَمَى بها خَمْسَةَ عَشَرَ مائةِ مدفعٍ؛ لأنَّ مدفع اللَّعين كان يرمي في غاية السُّرعة، حتَّى كان يرمي ستَّةَ مدافعٍ بفتيلةٍ واحدةٍ، ومِن الطُّوبخانة كان المجاهدون يقابلوه برمي المدافع، ولكن لم يكن في جهة السَّفينة إلاَّ سبعةُ مدافعَ، وتارةً مِن عندنا كانوا يُطلقون مِدْفَعَيْنِ أو ثلاثةٍ بفتيلةٍ واحدةٍ، فعند ذلك يفرح المسلمون ويدعون للمِدْفَعِيِّينَ الذين هنالك بالسِتْرِ والنَّصر والقوَّة فلله الحمد سبحانه؛ لم تصل الطوبخانة إلاَّ كورةٌ واحدة مِن ذلك العدد، هدَّمت حيط الطُّوبخانة شيئـاً قليلاً، فمِن ساعته بعث "علي آغا" البنَّائين مع كلِّ ما يحتاجون إليه مِن

يقصده صاحب المخطوط بالكلام فهو القائد أوريلي (O'Reilly).

(1) – في (أ) الطواغنة، والصّحيح ما هو مُثبت في المتن أعلاه؛ لأنَّ الطوب خانة لفظة مركبة مِن جزأين، أولهما تركي وهو (طوب Top) وهو اسم جامع أطلق على الأسلحة النارية والقذائف التي تستعمل كمدافع، والجزء الثاني (خانة hane) وهي فارسية تعني المنزل أو الدار الكبيرة أو المكان الواسع، استعملت الكلمة مركبة في العهد العثماني للدَّلالة على دور صناعة القذائف.

المرسى في البحر؛ لأنَّه كان أسهل، وإلى نصف النَّهار مِن الغد أصلحوا ذلك المحلَ المهدومَ.

ومِن طوبخانتنا رَمَوْا في تلك اللَّيلة قدر خمسمائةِ مدفعٍ ولا مات مِن طوبخانتنا أحدٌ مع أنَّ مدفعـًا واحداً انشق طولاً، ولكن لم يتفرقع، فلذلك لم يُضَرَّ به أحدٌ. ومِن الواقفين خارج الطُّوبخانة استشهد رجلان رحمة الله عليهما، وجعل المدفعيون والعسكر الذين هنالك وراء الحائط (كذا) الطوبخانة مِن جهة العدوّ مِتْرَاسـًا جيِّداً مِن الشَّطبة[1] والتُّراب حيث غاب الحائطُ كلُّه في التُّراب جزاهم الله خيراً.

وبقرب المغرب جاءت سفينةٌ أخرى بالمخاطف تِجاه الطُّوبخانة التي مِن جهة عين الرِّباط حذاء محلَّة السيِّد "حسن الخزناجي " فحين قَربت السَّفينة إلى البرِّ بدأت بالرَّمي إلى تلك الطوبخانة، وعند هذه الطوبخانة يوجد مدفعان من ثمانية عَشَرَ رِطْلاً رمى بهما "أحمد خوجة" باش دفتر[2] سبعَ أو ثمانيَ مرَّاتٍ تحت بروة السَّفِينةِ، فعند ذلك دهش

(1) – هو العسف الأخضر الرطب من جريد النخل.

– ابن منظور الإفريقي: لسان العرب، مادة (ش ط ب).

(2) – تنقسم الكلمة إلى قسمين: القسم الأول تركي (baş) رئيس أو زعيم، والقسم الثاني كلمة العربية (defter) دفتر، وبالتالي يصبح المعنى العام للكلمة رئيس الكتبة، وهو حسب صاحب دليل الحيران وأنيس السهران «أحد الكاتبين اللذان يكتبان للداي» انظر:

– محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، المصدر نفسه، ص 190.

اللَّعين وصار يرمي مِن جانب البحر أيضـًا بالكورة في الهواء، فعلمنا أنَّ السَّفينة سقطت، مِن ساعتها جاءت غليوطةٌ وجرَّتها، فعند مشي الملاعين وجدنا المخاطف [في هذا المحل مع شيء قليل مِن الكومنة مقطوعة][1] بالكورة، فعلمنا أنَّ رمي اللَّعين مِن الجانبين كان لطَلَبِ المَدَدِ، وفي اليوم التَّاسع مِن جمادى الأولى -وهو يوم الجمعة- لم يقع جدالٌ أصلاً.

وفي اليوم العاشر مِن جمادى الأولى -وهو يوم السبت- بقدر ساعة ونصف قبل الشروق[2] دخلوا بالصلان[3] والبركنتية[4] إلى البر، وكذلك أربعُ أو خمسُ سفائنَ كبار مِن التي تسمَّى بلغتهم اللينية[5] وبدأ يرمي الدوبلة[6] إلى كلِّ جانبٍ منها بحيث لا يقدر أحدٌ أن يقرُب مِن جهة البحر، فعند ذلك قرب الصاللر(كذا) إلى المحل الذي عينه للخروج إليه، إذ لو لم يكن الصال لم يتمكَّن اللَّعين من إخراج المدافع

(1) – سقطت هذه العبارة من (أ) ووردت في (ب) و(س).

(2)– في (ب) و(س) الشروع.

(3) – بياض في(ب).

(4) – في (ب) و(س) البرانكية، وهو نوع من السفن.

(5)- Vaisseaux.

(6) – عبارة عن كوره صغيرة من الحديد غلظها مثل بيض الدجاجة تستخدم كذخيرة للمدافع.

والأثقال إلى البرّ، وخرج بالمدافع بلا تعبٍ إلى البرّ بمنزلة الأرض[1]، وذلك المحل ما يقابل قبور الشُّهداء إلى جهة "الحراش" فبعد إخراج الصال ربطوه إلى البرّ بحيث أنّه جزءٌ مِن البرّ بدأ خروجُ العسكر، فبمجرد خروجهم بدأت طائفةٌ منهم بصنع المتارس[2] وتسويةِ المحلّ، وأسرع اللّعين بإخراج العسكر والقوّة بأسرعِ ما يكونُ، وكان وجه البحر كلّه أسودَ مِن فلائكهم وصنادلهم، بحيث يمكن للرجل[أن][3] يتمشّى على الصّنادل إلى سفائنهم، لكان يقدر على ذلك مِن غير أن يمسّ رجله الماء.

ودام اللّعين على إخراج العسكرِ وكلّ ما يحتاج إليه في البرّ، فحين رأى اللّعين أن لم يكن أحدٌ حذائهم، شرع قائدهم مع ثمانية آلافٍ في الصُّعود إلى جهة الجناين لأن[4] يَدْخُل بعسكره إلى الجنانين ويترّس هنالك، والحال أنّه لم يوجد هنالك مِن العسكر إلاّ شرذمةٌ قليلةٌ، وكانت تلك الشرذمة تُتَرِّسُ وراء زرب الجنَّة التي بُنِيت متّصلة بالطُّوبخانة التي عند قبور الشُّهداء، وكانت ترمي إلى الملاعين مِن وراء الزَّرب، ولكن لقلّتها لم يحسبها اللّعين وأراد أن يهجُمَ عليها، وحين قربوا إلى

(1) – في (س) "بل أخرج المدافع بغير إيصال إلى البر بمنزلة المحال".
(2) – في (ب) الترس.
(3) – إضافة منا.
(4) – بمعنى لكي.

الضرب[1] (كذا) جاءت رصاصةٌ مِن عند عساكِرنا وأصابت فخذَ قائدهم، فحين رأى الملاعين الدَّم يَسِيلُ على فخذِ قائدهم قالوا: « **يا سيدنا انجرحت (كذا) فلو رجعت بنفسك إلى مترسنا لأن تصلح جراحتك.** » فأجاب اللَّعين بأنَّ: « **هذه الجراحة ليست بشيء يمنعنا وعلى رسلكم.** » فحين جاوزوا زرب الجنَّة، فمع دخولهم جاءت رصاصةٌ أخرى على ثديه اليسرى فعند ذلك قال اللعين: « **أَدْرِكُوني بِفرسٍ لأركبَه.** » فركَّبُوه ووجَّهُوه إلى مترسهم ومِن مترسهم إلى السَّفينة فمع وصولِهِ أليها أُزْهِقَتْ رُوحُه، فعند ذلك دخل الرُّعب في قلوبهم.

و أمَّا جماعة اللَّعين التي كانت معه دخل البعضُ إلى الجنَّة، فمع دخولهم قُتل البعضُ منهم، ورَأَوْا وراء المترس مِن العُدوة مِن ناحية "الحراش" عسكراً كثيراً فزاد رعبُهم، فعند ذلك جاءت الجمال التي ساقها "صالح باي" مِن جهة "الحرَّاش" فدهِشُوا ورجعوا القهقرى، فوصول الجمال كان هو سبب انهزامهم، ولم يكن مع "الباي صالح" إلاَّ شيءٌ قليلٌ مِن الفرسان، فعند ذلك هجم العسكر القليل الذي وراء زرب الجنَّة وراء الملاعين، ورَدُّوا الملاعين حتَّى أوصلوهم إلى مترسهم، والبعض منهم استشهد والبعض جُرِحَ، فلأجل ذلك لم يقدِروا على قلع اللَّعين مِن مترسه[2]، وعلمنا وصول هذا النزر القليل مِن المجروحين،

(1) – يقصد به المكان أو الموضع.
(2) – في (ب) "فالإبل لم يقدروا على قلع اللعين من مترسه".

وجدنا رجلاً قتيلاً بقرب مترس اللَّعين مَستُوراً بالرَّمل بعد عشرين يوماً اسمه "الحاجّ صالح" لم يتغير منه شيءٌ ولكثرة دوبلة الملاعين لم يقدروا على اتباعهم إلاَّ أقلَّ القليل وصار المَحلُ الذي بيننا وبين اللَّعين كأنَّه مجزرةٌ، ولا تُعرفُ جثَّة المسلم إلاَّ لكونه برأسه وجثَّة الكافر إلاَّ لكونها مقطوعة الرأس[1]، ولم يدخل أحدٌ إلى داخل مترس الملاعين إلاَّ فرسان مِن فرسان الشَّرق، وكلُّ واحدٍ منهما قتل اثنينِ أو ثلاثةً مِن الملاعين في دخل مترسهم. أحدهما مات في الطريق والآخر خرج حيّاً من المعركة ثمَّ مات بعده لكثرة جراحته.

ورأينا مكتوباً في كتبهم اعتذاراً منهم كيف تُقاتلون أُناساً في هذه الشَّجاعة، كالأسد، ثمَّ استقر اللَّعين في مترسه، ولم يستطع أحدٌ أن يصل إلى مترسهم لكثرة الدوبلة، فحين رأى عساكرُنا هذه الحالة صاروا يَرْمُون بالرَّصاص مِن جهة الأرض الذي وراء قبور الشُّهداء إلى المغرب، ولم يكن لهم أحدٌ مِن الأمراء يدبِّرُ لهم الأمر بأن باتوا بالمدافع أو يوتي بالمهارز متاع البومبة، فعند ذلك أحكم اللَّعين مترسَه وصار بحيث أنَّه [لا يقدر أن يخرج][2]، ورأينا مكتوباً في كتابتهم أنَّهم عند الزَّوال سَلِمُوا مِن رصاص المسلمين وكان طول المترس ألفَ خُطْوَةٍ، وبُعدُه مِن الشطِّ ثلاثين خطوةً، لكن مِن طوبخانة الخنيس كان

(1) - سيأتي تفصيل سبب ذلك ص 153.

(2) - بياض في (ب) و(س).

المدفعي[1] الذي فيه يرمي بالكورة إلى الحائط مِن الجانب الذي تجاه المترس متاع اللَّعين، فثقبنا الحائط وعُدْنا نرمي مِن تلك الثقبة إلى المترس اللَّعين، فكان في كلِّ رميةٍ يُقتَل مِن الملاعين عددٌ كثيرٌ. حتَّى أُخْبِرنا منهم أنَّهم في الرَّمية الأولى قَتِلَ مِنهم سِتةٌ وثلاثينَ نفساً، وذلك أنّ المدفع المذكور كان مُحاذياً لطول مترسهم، وفي كلِّ مرَّةٍ[2] كان هذا المدفع يقتل منهم عدداً كثيراً،فتحيَّل اللَّعين للخلاص مِن كورة المِدْفعِ المذكُورِ، فلم يمكن لهم؛ لأنّ المدفع في غايةٍ مِن العلوِّ [والمتراس في زيادة من التَّسفل][3] مِن المدفع متاع الخنيس، والكفَّار الملاعين رَمَوْا في هذه الشِّدَّةِ إلى أن أظلم[4] اللَّيل، وكانت لهم مُضَايَقَةٌ كبيرةٌ، [ولو لم يكن لهم مضايقةٌ ما عدا حبسهم][5] في حرِّ الشَّمس ونار البرد وحرِّ الرَّمل[6] والتَّضييق عليهم مع أنَّ كورتنا تعمل فيهم جرحاً وقتلاً، وفلائكهم وصنادلهم كانت لا تكفي لرفع المجاريح إلى سفونهم (كذا) حتَّى سمِعْنا مِن بعض النَّصارى- الذين كانوا معهم في البرَّ ثم أُسِرُوا بأيدينا- أنَّ الصندل مملوءاً بالمجاريح كان يقدم إلى سفينةٍ مِن سفائنهم

(1) - في (أ) المدفعين.

(2) - في (ب) و(س) في كل رمية.

(3) - سقطت هذه العبارة من(أ).

(4) - في (ب) إنظلام الليل.

(5) - سقطت من (أ) ووردت في (ب) و(س).

(6) -في (ب) حرِّ الشمس وحرِّ نار البارود على الرَّمل أُلفتهم.

ليُفرِّغ المجاريح (كذا) فيها فيقول أهلُ السَّفينة: « **بَعْدُونا لأنَّ سفينتنا مملوءةٌ بالمجاريح امشوا إلى سفينةٍ[1] أخرى**»، وإذا مَشُوا إلى سفينة أخرى قال أهلها كذلك والحمد لله على ذلك وهذا كلّه مِن فضل ربِّنا.

وأنا العبد الحقير رأيت مكتوبا جاء من قرطاجنة[2] -بعد وصول الملاعين إلى بلادهم- أنَّ الملاعين أَخْرجُوا إلى أسبيطال[3] قرطاجنة ألفين وثلاثمائةٍ من المجاريح (كذا) المرضى، فضاق عليهم الأسبيطال، فوضعُوهم في كنائسهم، والحال أنّ أقلَّ مِن نصف العمارة مشى إلى قرطاجنة، وأمّا الأكثر فمشى إلى "بلنسية"[4]، وما بلغ لنا علم كم أَوْصَلُوا من المجاريح (كذا) والمرضى إلى بلنسية، لكن باعتبار الغُرابين اللذيْنِ أوصلوهم إلى "بلنسية" مِن المجاريح هم أكثر.

والملاعين يقولون أنَّ رصاصكم مسمومٌ [لأنَّ المجاريح] كلَّهم ماتوا، حتَّى المائة لم يبرأْ واحد الحمد لله ثمَّ الحمد لله.

وفي اللَّيل فرَّ اللَّعين وترك سَبْعَةَ عَشَرَ مِدْفَعاً مِن النُّحاس والأثقال كلَّها،

(1) - سقطت من(أ) ووردت في (ب) و(س).

(2) - قرطاجنة أو قرطخانة هي مدينة بالساحل المتوسطي لإسبانيا بناها حيدر بعل القرطاجي سنة 211 ق.م، ظلت عاصمة لإسبانيا البونيقية حتى الغزو الروماني، اشتهرت بدور صناعتها البحرية ومن ثمَّ كانت قاعدةً للأسطول البحري الإسباني.

(3) - تعريب للكلمة الفرنسية (Hôpital) والتي تعنى مستشفى.

(4) - في (ب) و(س) الاقتة.

لم يَرفَع مِن السِّلاح ولو مكحلة واحدة، وقد كان اللَّعين حفر بِئْراً في وسط مترسه وكان فيه ماءٌ غزيرٌ باردٌ، فانكبَّ النَّصارى على الشُرب منه طمعاً في برودة مائه فكلُّ مَن شَرِبَ منه مات بالاستسقاء، ولم يبرأْ منه ولو واحد.

وكان عدد مجاريحهم أكثرَ مِن ثلاثةِ آلافٍ، وموتاهم حين رجوعهم تزيدُ على ثمانيةِ آلافٍ، اللَّهم زد في خذلانهم[1]، وكان عددُ موتانا لا يَبلغُ ثلاثمائةٍ ممَّن استشهدَ في المعركة، وممَّن مات مِن المجروحين، والحال أنَّ مَا رمى الملاعين مِن الرَّصاص والكورِ والدوبلةِ لا يَعلم عددَهُ إلاَّ الله تعالى، إذ في مقابلِ كلّ رميةٍ منَّا يُرمى مِن عندهم مائةُ رميةٍ، ولو قلنا مائتا رميةٍ أو ثلاثمائةٍ فليس بكذبٍ، وذلك بعيدٌ عن العقل إلاَّ لمن شاهد الواقعةَ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لطف بعباده المومنين.

ثُمَّ بعد مدَّةٍ شَهِدْنَاَ في غزاتهم[2] أنَّ عددَ ما ضاع منهم مِن المقتولين في المعركة ومَن مات مِن المرضى والمجروحين أربعةَ عَشَرَ أَلفاً. الحمد لله ثمَّ الحمد لله.

وكان فيهم اثنا عشر مِن المهندسين فماتوا في المعركة، ومِن الحكَّام مات مائتان وخمسونَ على ما بلغنا، ومات كاهية الجنرال، ولم يُمْسك أحدٌ منهم حيّاً؛ لأنَّ أميرنا المجاهد "محمَّد باشا" وعد لمن يأتي بالرَّأس أن يُعْطِيَهُ عشَرةَ دنانيرَ، وإن جاء بالرُّومي حيّاً فإنَّه يَضْرِبُ عُنُقَ

(1) - سقطت من (ب) ووردت في (أ).

(2) - أي كُتُبِهم ونصوصهم.

الرُّومي، ولا يعطي للذي جاء به شيئاً؛ فلأجل ذلك لم يشتغل أحدٌ بإمساك الرُّومي حيّاً، وكان في هذا التنبيه حكمةٌ؛ لأنَّ بسببه وقع غيظٌ كبيرٌ و انذعروا به كثيراً، واللَّعين راي[1] إسبانيا بعث إلى بوباسهم[2] الذي كان بالجزائر، إذا وجدَ أحداً من عساكره مأسوراً أن يَفْدِيَهُ ولو كان بوزنه ذهباً، ففتَّشُوا فلم يجدوا أحداً منهم، فقال[3]: « **كيف هذه القضية وقعت هكذا، والحال أنَّ المسلمين كثيرو الرَّغبة في المال؟** » فأجاب البُوباس اللَّعين بأنَّ سلطانهم قال لهم: «**هذا الرُّومي جاء إلى بلادنا لأن يأخُذَها ويستأْصِلنا منها فلا يُنْذَعَرْ بالأَسْرِ، بل لا ينفع في انذعاره إلاَّ القتلُ؛ لأنَّه نهاية ما ينذعر به البشر**» لأجل ذلك أمر عسكره أن ياتوا برأس الرُّومي، ووعد لمن ياتي برأسه عشرة دنانير، ولمن أتى بالرُّومي حياً أن لا يعاقبه ولا يُجَازِيَهُ.

وأمَّا رؤوسهم المقطوعة التي أُوتي بها إلى الأمير فأربعمائةٍ وأربعةٍ، ويُحتملُ أن تزيد الرُّؤوس خمسينَ أو ستينَ على ذلك العدد؛ لأنَّ القبائل حملوا البعضَ منهم إلى بلادهم، [ليروهم إلى أهلها، كيف هو رأس

---

(1) – كلمة إسبانية يقصد بها السلطان.

(2) – يقال في الشرع النصراني (البابا) ويقصد به القيِّم الأكبر في الكنيسة الكاثوليكية، والبابوية من وظائف الشرف والولاية عند النصارى باعتبار البابا يمثل المسيح عليه السلام في الأرض حسب معتقدهم. انظر:

– مصطفى بن عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص 61.

(3) – أي ملك إسبانيا.

الرُّومي][1] ولله الحمد على هذه النُّصرة.

ومِن أمرائنا "مصطفى خوجة الخيل" وقف في ميدان القتال مع فرسانه، وأحسن إلى العسكر المنسوب إليه بالعطاء والإحسان، وكذلك خليفة الغرب، السيِّد "محمَّد بن عثمان"[2]، وقف في ميدان القتال،

---

(1) – في (ب) لأن يوري أهل بلادهم رأس الكافر.

(2) – هو محمد بن عثمان الكردي كُنّيَ بأبي عثمان، وأبي علي، وأبي الفتوحات، ولقب بالكبير، والأكحل. وأمه جارية أهدها السلطان المغربي مولاي اسماعيل لأبيه، وأبوه هم عثمان بن إبراهيم الكردي ، كان خليفة على مليانة ثمَّ ارتقى ليصبح خليفة على التيطري وما يليها، عُيِّن محمَّد باي الكبير قائداً على فليتة بالغرب الجزائري سنة(1178هـ/ 1764م)،ثمَّ عينه إبراهيم الملياني خليفة له لما توسم فيه من خير وحب للجهاد، طالب الرعية بعد وفاة إبراهيم الملياني تعين محمَّد باي الكبير بايا على الإيالة الغربية واقتنع محمَّد بن عثمان باشا داي الجزائر بذلك لولا قيام الحاج خليل بابتياع المنصب، وبعد وفاة الأخير عند خروجه لمواجهة الثورة الدرقاوية عُيِّن مباشرة محمَّد باي الكبير في منصب باي الإيالة الغربية سنة(1192هـ)، اشتهر محمَّد باي الكبير باهتمامه بشؤون الرعية وحبه للعلماء كما خلَّد فتحه لمدينة وهران ذكراه فتنافس العلماء والشعراء في مدحه والثناء عليه بما هو أهل له، توفي سنة(1213هـ/ 1799م) وخلفه ابنه عثمان. عن محمَّد باي الكبير انظر:

– أحمد بن هطال: رحلة محمَّد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، ص 16– 30.

– أبو راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، ص 53– 66.

– أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص 147– 166.

– محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران، ص188.

ووقف الرِّجال، وظهرت منهم علامةُ الأبطال، وبذل المالَ قبل السُّؤال، وشاع صيته بإجراء (كذا) شجاعته في ذلك اليوم، وكذلك "الباي صالح" بذل جُهْدَه وطاقته في الذَّبِ عن المسلمين ببدنه وماله، لأنَّ سَوْقَ الجمال كان سبباً لانهزام اللَّعين في ذلك اليوم، هكذا رأينا مكتوباً في غزواتهم، جزاهم الله أحسن الجزاء وكلَّ من وقف في مقاتلةِ العدوِّ في ذلك اليوم، وثبَّتَ أجورَهم، خصوصاً يوم اللقاء.

ثمّ بدأ اللعين في ترقيع[1] السَّفائن التي سقطت مِن الحرب، وامتدَّت تلك التراقيع[2] إلى اليوم الثالث عشر مِن جمادى الأولى، وكان يوم الأربعاء فبدؤوا بالفرار وامتدَّ فِرَارَهم إلى يوم السبت وهو السَّابعُ عشر من جمادى الأولى **﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[3].

وامتدَّ انتقالهم؛ لأنَّهم كانوا متداخلين بعضهم في بعض كالشَّبكةِ، ولو أطلقنا عليهم سفينة النَّار كما قال بعضُ العقلاء لم ينج منهم إلاَّ قليلٌ، وآخر الأمر صنعنا سفينة النَّار، ولكن لما اشتغلنا بسبب الوصول إليهم والملاعين حين رأوها كانوا في شديد الألم والخوف منها.

(1) – في (ب) ترفية.

(2) – في(ب) ترقية.

(3) – الآية 44 سورة الأنعام.

الحمد لله ما نالوا منَّا ولو حجراً ونلنا منهم عدَّةً كثيرةً، وكثيراً من رجالهم المُعتبرين، وهم مَشَوْا إلى بلادهم خائبين خاسرين.

وأنا العبد الحقير أقول بمقتضى عقلي: «لو وُجِدَ في مائةِ ألفِ نصرانيٍّ واحدٌ من الذين نزلوا في البرِّ وشاهدوا تلك الواقعة وما حلَّ بهم مِن الشدَّة والمضايقة؛ لكفى في ترهيبِ هؤلاءِ المائةِ ألفٍ وتخويفهم.»

يقول العبد الحقير الفقير الجامع إنَّما حرَّرْتُ هذه الأوراق وجمعت هذه الأحرف لتكون تذكيراً لي، ولمَن حضر هذه الوقائع، خصوصاً لمن استشهد فيها بالرَّحمة والمغفرة، وإعلاماً لآخر القاطنين والمرابطين بها، وليعرفوا قدر الجزائر إذ تراب نواحيها معجونٌ بدماء العباد، اللَّهم أدمها دار جهادٍ ومحلَّ عزمٍ واجتهادٍ، إلى يوم التنادِ، بحرمة أشرف العبادِ، وأكرم الأكرمينَ، يوم الميعادِ.

[خاتمة]

ووقع الفراغ مِنه في العُشْرِ الرَّابع، مِن الثُلث الثاني، مِن السُّدس السَّادس، مِن النَّصف الثاني، مِن العُشْرِ الثالث، مِن العُشْرِ العاشر، مِن القرن الثاني عشر[1] مِن هجرة سيِّد البشر محمَّد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

انتهى السِّفر المبارك بحمد الله تعالى، وحسنِ عونه، وتوفيقه الجميل، على يدِّ كاتبه عُبَيْدُ ربِّه سبحانه، وأسير ذَنبِهِ محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني بن رقية التلمساني داراً ومنشئـًا الجديريُّ[2] أصلاً، غفر الله له، ولوالديه، ولأشياخه، ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات بفضله وكرمه، والحمد لله ربِّ العالمين.

وذلك عن إذن الأمير بأمر الله، القائم بحقِّ الله، المُتَوَكِّلُ على الله، المُجَاهِدُ في سبيل الله، الفاضل الأكمل الزَّكيُّ الأعدل، سيِّدي محمّد باي أَيَّدَهُ الله بِمَنِّه، وجعله رحمةً لجميعِ خَلقهِ، نجل المرحوم بكرم الله، السيِّد عثمان تغمده الله برحمته.

وكان الفراغ منه ضحوة يوم الخميس في شهر الله المعظم جمادى الثانية، بعدما خلت منه أحدى عَشَرَ يومـًا، سنة أربعٍ وتسعينَ بعد المائةِ والألفِ.

(1) – الموافق ل 14 ذي الحجة 1193هـ

(2) – في (أ) الجزائري أصلاً.

وكان الفراغ منه وقت الضحى يوم الثلاثاء 24 ذي الحجة سنة 1194هـ [1780م][1] كاتبه العبد الحقير محمّد بن علي (...)[2] غفر الله له ولوالديه، ولجميع المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تَسليمـًا.

(1) – ما بين معقوفتين زيادة منا.

(2) – لم نستطع قراءته.

ثبت المصادر والمراجع

المخطوطات:

1. محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم 2521.

2. محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجيلاني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم تحت رقم 2626.

3. عبد الرحمن الجامعي: (فتح وهران) مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية.

المصادر والمراجع:

4. أحمد بن هطال: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي 1785، حرّرها وقدّم لها محمد بن عبد الكريم، د-ط، دار ارتياد الآفاق دون سنة نشر.

5. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، د-ط، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

6. الآغا بن عوده المزاري: طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، د ط، الجزائر، دار البصائر، 2007، ج1.

7. صالح حيمر: التحالف الأوروبي ضد الجزائر سنة 1541 وتأثيراته الدولية والإقليمية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006.

8. محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومنّته في التّحدث بفضل ربي ونعمته، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، د-ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

9. محمد بن أحمد أبي راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق محمد غالم، د-ط، منشورات ***CRASC***، الجزائر، 2005، ج2.

10. مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر (948/ 1541) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية، مجلة الأصالة، العدد الثامن، ماي-جوان 1972، الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

11. أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط الأولى، الجزائر، دار البصائر، 2007.

12. جون ب وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009

13. حسين بن رجب شاوش بن المفتي: تقيدات بن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلماءها، جمعها واعتنى بها، فارس كعوان، ط الأولى، 2009، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة

14. زامباروا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تر زكي محمد حسن وآخرون، د-ط، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي.

15. فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر، الكراغلة نموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري قسنطينة، 2004.

16. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، د-ط، بيروت، لبنان، دار صادر، 1997.

17. خير الدين الزركلي: الأعلام، ط15، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ج7.

18. ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، د-ط، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي 1999، ج1.

19. صالح زهر الدين: موسوعة المعارك العربية من الفتح إلى غاية 1968، ترجمة مصطفى الطلاس ورياض تقي الدين، ط الأولى، بيروت، لبنان، دار الندوة الجديدة، 2000.

20. محمد بن صالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلاد قسنطينة واستلائهم على أوطانهم، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009.

21. محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، د-ط، الجزائر، (ش و ن ت)، 1979.

مراجع اللغة الفرنسية:

1) Ernest Mercier: L'Algérie et les questions algérienne étude historique statistique et économique, Challamel Ainé éditeur libraire algérienne et colonial, Paris, 1883

2) De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887.

3) BRESNIR.J : Récit indigène de l'expédition D'O'REILLY, REVUE AFRICAINE, ANNEE1864, N°8.

4) Alphonse Rousseau : Chroniques de la régence d'Alger, Traduites d'un manuscrit arabe intitulé "EL-ZOHRAT-EL-NAYERAT", IMPRIMERIE DU GOVROMENT, ALGER, ANNEE1841

5) Devoulx A : Expédition d'O'Reilly d'après du document turc, in R-A (1858) volume N°03

6) Cher Bonneau M-A : Constantine et ses antiquités trait de nouvelles annales des voyages, Février 1857, Imprime porthumot, Paris.

7) Dournon A: kitàb tarika qosàntina, par EL hadj Ahmad El mobàrke,in R-A, Volume 57, 1913.

فهرس الأعلام[1]

أ

(1)- قدمنا الاسم على غيره في ترتيب هذا الفهرس، فإن حدث و ذكر شخص مرة باسمه ومرة بكنيته أو شهرته قمنا بوضع الشهرة أيضا وجعل ما بين قوسين دلالة على المكان الذي يبحث فيه الباحث عما يريد، على سبيل المثال : محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن رقية التلمساني يكون في الفهرس ضمن من اسمه محمد ويوضع بين قوسين شهرته أو كنيته أو نسبته هكذا(بن رقية) فإن بحثت في حرف الباء ستجد بين قوسين المكان الذي تبحث فيه عن صاحب الكتاب، بمعنى إذا وقفت على اسم بن رقية التلمساني وبعده =(محمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني) أي ابحث عن هذا الاسم في (محمد بن محمد بن عبد الرحمن التلمساني).

الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة

فهرس الأماكن

الفهارس

تمت ولله الحمد

إنّ غياب مادة خبرية تؤرخ للعهد العثماني في الجزائر (1515-1830) لم يكن مردُّه انعدام المصادر التاريخية التي تُؤرِّخُ لهذه الفترة فحسب، وإنَّما هناك سببان لذلك: أوَّلهما استحواذ السُلطات الفرنسية على مخزون هام جدا مِن هذا التراث وإتلافه -حتى تقطع صلة المجتمع الجزائري بحضارته العربية الإسلامية- ثانيهما: تقاعس الباحثين والمهتمين عن إعادة بعث تلك المادة الخبرية التي تشمل تراثا كبيرا مِن المخطوطات المتفرِّقة بين المكتبات العامة والخاصة، والتي لاتزال إلى اليوم في مطيِّ الإهمال وغياهب النِّسيان.

ومِن بين المخطوطات التي لم تنل حقَّها مِن الاهتمام والدِّراسة ولم تر النور في شكل يليق بها فعلا المخطوط الذي بين أيدينا اليوم، وهو مخطوط "الزَّهرة النَّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" لمحمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمن الجيلاني بن رقيَّة التِّلمساني.

يُعبِّر المخطوط في مجمله عن وجهة نظر أحد العلماء الجزائريين في الحملات الأوروبية على مدينتهم طيلة فترة زمنية جاوزت الثَّلاثةَ قرون، وصاحب المخطوط يتحدَّث عن عددٍ مِن الحملات الأوروبية على مدينة الجزائر، وسَيْر كلِّ حملةٍ مِن الحملات الماضي ذكرها.

والمخطوط يحمل بين جنباته: وِجهة رأيِ سكان الجزائر حيال الاعتداءات الأوروبية على وطنهم، والدَّافع الحقيقي لهذه الحملات، وقبل أن يجيبنا صاحب المخطوط عن وجهة النَّظر هذه في مخطوط "الزَّهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" وجب علينا معرفة عدد مِن المباحث تتيح لنا فهم ما أراد صاحبه إيصاله لنا. ولعلَّ أهم هذه المباحث ما تعلق بصاحب المخطوط، والسِّمات البارزة للعصر الذي نشأ فيه، وسنكتفي بالحديث عن عصره من ثلاثة نواحي نرى أنها ذات أهمية لسبر غور ما جاء في هذا المخطوط، ثمَّ سنسعى إلى أفراد المخطوط بدراسة نتحدث فيها عن أهميته، وما يتضمنه بين دفتيه كما أنه لم يفتنا ذكر أهم المصادر التي عاد إليها في نقل معلوماته عن هذه الحملات.

ISBN: 978-9931-310-27-3

9 789931 310273